كتاب أشهر مشاهير الإسلام

في

الحروب والسياسة

تأليف

رفيق بك العظم

المجلد الأول

في سيرة الخلفاء الراشدين ومن اشتهر في دولتهم

وهذا

الجزء الأول منه

(الطبعة الثانية)

[illegible]

١٢١١٨

٣٤٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أفاض على الانسان من نور العقل ما شرف به على سائر المخلوقات . وجعل التفاضل بالعلم مرقاة للبشر آيتها العظمى (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) فانتشروا في اكناف الارض يبتغون الى ذلك الوسيلة . ويتذرعون الى السبق في مضمار الحياة بالاعمال الجليلة . فشيدوا صروح المدنية فشادوا الممالك . فمنها الموجود ومنها الهالك . وصلى الله على سيدنا محمد اعظم البشر بلا مراء . ومؤسس الشريعة الاسلامية على دعائم الحرية والعدالة والاخاء . الذي دانت لدينه الامم . وتضاءلت دون جليل عمله شوامخ الهمم . وعلى آله واصحابه الذين انتصروا للحق فنصروا شريعته الغراء . وخلفائه الذين اهتدوا بسنته فخضعت لهم الشعوب لا رهبة ولا رياء من اما بعد . فان الله سبحانه وتعالى منذ دحا الارض جعلها مضماراً تتسابق فيه الاحياء . وتتبارى فيه الاكفاء . والانسان ابن بجدتها . والسابق في حومتها . كل فريق منه يباري فريقاً . وكل امرئ ينتهج الى المجد طريقاً . فمن استمسك بعروة الجد استعلى . ومن استمهل عزيمة النفس ونى واسترخى . فكانت يده في هذا الوجود هي الدنيا . ويد السابق هي العليا . وبعيد الهمة يأبى الادنى . والغضاضة لا يرضاها الا ضعيف الحجى . ومن ثم كانت مراتب الناس في هذا الوجود بنسبة الاعمال . وخلائقهم سبب تفاوت الرجال . فرب شخص بعيد السمعة عظيم كبير . وآخر لا في العير ولا في النفير

ولم ارَ امثال الرجال تفاوتاً الى الفضل حتى عدَّ الف بواحد

بل رب شخص تقوم به الدولة وتسعد الامة وآخر تهلك به الدولة ويشقى

الناس وانما قامت الدول واتصلت بالشعوب اسباب السعادة بافذاذ من كل امة معدودين . وافراد من الرجال مشهورين . كبرت نفوسهم عن ان تخلد الى الدنايا وترضى بالحقير من الشهوات فطمحت بهم الى معالي الامور وانصرفت بهممهم الى غايات الكمال فنالوا بهذا حياة لا تفنى . وغادروا في الوجود آثاراً لن تزول

لم يخل من هؤلاء الرجال عصر من العصور ولا دولة من الدول لانهم اقطاب امالة الذين تقوم بهم اركانه . ودعامة الوجود الاجتماعي التي يشاد عليها بنيانه . وبالخاصة منهم رجال السياسة والحرب الذين رفعوا منار الدول ودوخوا ممالك الارض فانهم على قلة عددهم من كل قبيل . وندرتهم في كل جيل . لم يخل تاريخ كل امة من ذكرهم . ولم تخل عن صفحات الوجود آيات فخرهم . والامم في تخليد ذكر أبطالها هؤلاء مذاهب من العناية تختلف باختلاف الازمنة والاقوام وقد بلغ بالاقدمين منهم كاليونان مثلا ان أنزلوهم منزلة الآلهة ورفعوا لهم في هياكل العبادة الانصاب واما أهل العصور المتمدنة فقد افردوا لافرادهم التواريخ تشهد لهم بجميل الذكر . وشيدوا باسمهم الآثار ليبقى مذكوراً بالتعظيم أبد الدهر

اذا نقبنا عن هؤلاء الرجال في تاريخ كل أمة اوجدنا أعظمهم عملا . وأعلاهم كعباً . وأبعدهم همة رجال الاسلام الذين نبتت اصولهم في منابت الشيح والقيصوم . وأظلت فروعهم فارس والترك والصين والمغرب واوربا والروم . فدانت لهم أعظم دول الارض لذلك العهد . وخضعوا لسلطان حكمهم أشد الأمم صولة وأرقاهن قوة ومدنية كالفرس والرومان والقوط وغيرهم

ان ممن اشتهر في التاريخ ذكره وعظم في عهده اثره هنبال بطل قرطاجنة الشهير الذي ناصب الرومان العداوة على ضخامة سلطانهم ومناعة بنيانهم فاجتاز

اليهم جبال البرنيه بجيوش جرارة وجند كثيف اينازلهم في صميم بلادهم ويستنزل أقيالهم عن منصات مجدهم ومع هذا فأين هو من موسى بن نصير ومولاه طارق اللذين جاءآ من أقصى العربية الى أقصى المغرب فدوخا ممالك هنبال القديمة في افريقيا الشمالية وقطعا بجندهما القليل البالغ اثنى عشر الف مقاتل مضيق سبتة الى القارة الاوربية ففتحا مملكة الاندلس وقضيا على دولة الغوط بالدمار . بل اين هو من عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الذي اقتحم ما وراء البرنيه على عهد الخليفة هشام الاموي واساح بجيشه القليل [illegible] المملكة الفرنساوية حتى بلغ بواتو وبورغونيا على مسافة الف ميل من [illegible] طارق فذعرت منه سكان الممالك الاوربية واستجاشت لقتاله وصده جنود الفرنساوية والكوكسون والغوط والجرمان حتى تمكنوا من ارجاع [illegible] على ادراجه واوقفوا تياره الذي كاد يكتسح الممالك الاوربية بقوة [illegible]

اين نابليون الذي طبقت شهرته التاريخية الآفاق وعده الاوربيون من أشهر القواد في العالم لحروب [illegible] [illegible] شدة و[illegible] لا وله بفتح جديد او خبر عتيد ممن قتيبة بن مسلم فاتح السند وتركستان [illegible] عبد الملك بن مروان الذي تولى منصب الخلافة وقد تزعزعت [illegible] وسرأبت الى التحزب والانقسام اعناق المسلمين . فبادر الى تلافي [illegible] مبادرة الحكيم واستظهر على الشدائد ببعد النظر والرأي فذلل صعاب الامور وأرغم من خالفه من الناس على الطاعة . ثم بعد ان استصفى لنفسه الخلافة وأجرى امور الملك مجرى السداد والطمأنينة اطلق للجيوش الاسلامية [illegible] الفتح والغارة فجاست خلال الممالك وجابت شطوط الخيطين مرفوعة [illegible] الظفر واثقة من نصر الله لها وحفوف عنايته بها

ومع ان هؤلاء الرجال واضرابهم كثير عددهم في الاسلام فان العناية باستقصاء اخبارهم وتتبع تواريخ حياتهم وافرادها بكتب خاصة تخليداً لذكرهم وتقديراً لقدر كل فرد منهم غير متوفرة عند المسلمين ولا ملتفت اليها عند المؤرخين . اللهم الا ما اوردوه من اخبارهم مبعثراً في بطون التاريخ متفرقاً في كتب التراجم التي نكاد الاستفاضة فيها بذكر الرجال تقصر على ارباب القلم دون ارباب السيف

ثم قد عني بعض المؤرخين بافراد كتب خاصة بتاريخ افراد من رجال الاسلام كسيرة السلطان محمود الغزنوي وسيرة صلاح الدين وسيرة تيمورلنك الا ان الاحرى ببعض هذه السير ان تسمى كتب ادب لا كتب سير وتاريخ كسيرة السلطان محمود الغزنوي المشهورة بتاريخ العتبي وسيرة تيمور المسماة عجائب المقدور لالتزام مؤلفيها طريق التقفية وتكلفهما السجع الممل للنفوس المخل باصول التاريخ وفضلاً عن هذا فان في المسلمين من رجال السياسة والحرب عدداً غير قليل لو افردت لكل واحد منهم سيرة خاصة او افردوا بتاريخ خاص لكان ذلك ابقى لذكرهم . واظهر لشهرتهم . واقرب لتناول أخبارهم التي تكون داعية الاقتداء بهم . والاعتبار بجليل اعمالهم . فان لبعض النفوس ميلا غريزياً الى حب الشهرة وسلوك مسالك الظهور فاذا عرف أربابها كيف ساد اسلافهم وتقدم عظماء قومهم ورأوا التنويه بشأنهم خاصة والاشارة الى انفرادهم بالشهرة واتصافهم بالفضائل ربما يدعوهم ذلك حتى كانوا من زعماء الأمة وقادة الافكار والسياسة الى التشبه باولئك في جلائل أعمالهم وتدقيق النظر في سيرهم والوقوف على مواضع الاصابة ومظان الخطأ من أعمالهم والاخذ بما يصلح منها لزمانهم ومكانهم

عرف هذا الغربيون فلم يكتفوا بافرادهم التواريخ لرجالهم والعناية بالتنويه بشأنهم بل صنعوا لهم التماثيل تقام على فوارع الطرق وساحات المدن وشيدوا باسمائهم الآثار العظيمة كالمدارس والملاجي ليكون ذلك ادعى لتوجيه الانظار اليهم. وأبقى بين الخاصة والعامة لجميل ذكرهم. كما انهم اجتنبوا في تراجم رجالهم استعمال التخيلات الشعرية وايراد الاستعارات والمجاز في الوصف ورص الالقاب الكثيرة رصاً تضيع معه صفات المترجم الفطرية . وتغمض على الناقد اوصافه الحقيقية. ليكون في بساطة الترجمة وقصرها على ايراد الحقائق في منشأ المترجم ومآثره في حال ظهوره وإبان نشأته تصوير لسيرة المترجم يمثله للمطالع في قالب الوجود حتى كانما هو يراه

ولعمري ان رجال الأمم العظام لخليقون بمثل هذه العناية جديرون باعظام الشأن . وتخليد ذكرهم على صفحات الزمان . ولما كان للاسلام قد أنجب كثيراً من امثال هؤلاء الرجال الذين ورد ذكرهم مشتتاً في بطون التواريخ متفرقاً في ثنايا الكتب والسير فقد نهضت بي عزيمة النفس واستفزني الولع برجال الاسلام الى ان استقصى اخبارهم واتتبع آثارهم وأفرد لمشاهيرهم في الحرب والسياسة تاريخاً خاصاً آتي به على أخبارهم وفتوحاتهم وسياستهم وأخلاقهم وكل ما يتعلق بتاريخ حياة كل فرد منهم على اسلوب مبتكر بديع الترتيب سهل على المتناول جامع للاوصاف التي تمثل حقيقة المترجم تمثيلا لا يدع حاجة في النفس الى المزيد ولا يحوج المطالع الى الامعان في جمع مزيج الاخبار الى مقر الذاكرة من دماغه والعقل من فؤاده للوقوف على أغراضها . والتفريق بين جواهرها وأعراضها

هذا وقد أخذت على نفسي أن أطلق لها في كل مجال عنان القول وأرمي

بسهام الفكر الى كل غرض يبدو للنظر عساني ان ألم بشيء من الادواء الاجتماعية التي طرأت على المسلمين . واستطيع من اسداء النصح ما أخدم به في هذا العصر قومي الذين ما إخالهم يردون نصيحة الناصحين . سيما اذا كانت مؤيدة بسيرة الصحابة معضدة بالتاريخ مستندة الى الدين

ولما وطنت النفس على مباشرة هذا العمل رأيت ان اقصر الاستقصاء والبسط في الكلام على اشهر مشاهير الاسلام خاصة وأورد في ختامه ملخصاً تاريخياً لمشاهير رجال الاسلام عامة يكون كفهرس تعلم منه ذواتهم ويرجع فيه الى ملخص تاريخهم

واني وان كنت عزمت على اجتناب الخوض في الفتن التي ثار ثائرها بين المسلمين في عهد الخلفاء عثمان وعلي ومعاوية رضي الله تعالى عنهم اجمعين ولم أر بداً من ايراد ذكرهم مع الخليفتين السابقين أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما لانهم جميعاً من دعائم الاسلام التي قامت عليها صروحه . واعضاد الدين الذين بان بهم صريحه . فقد اكتفيت من سيرة هؤلاء الثلاثة بما لا يعلق بذكره من هذه الفتن أثر في النفس الا ما كان فيه حجة بالغة يجري بها القلم او حكمة زاجرة يحتاج اليها العاقل . ويتعظ بها الجاهل . لهذا لا يؤخذ عليّ ما يُرَى من الاختصار في تراجمهم والاقتصار على ذكر بعض سيرتهم

وقد جعلت الكتاب اقساماً على ترتيب الدول الكبيرة ومن عاصرها مقدماً في الذكر الاقدم من الخلفاء والسلاطين ومن يليه وهكذا الى آخر الكتاب وأتبع كل خليفة او سلطان بذكر من قام في دولته . واشتهر من بين زمرته . من امراء الحرب والسياسة الذين اشتهر ذكرهم . وعظم في الاسلام أثرهم . والله المسئول ان يعصمنا من الخطأ ويفيض علينا روح النطق بالحق والصواب انه مجيب السؤال

﴿ القسم الاول ﴾

﴿ دولة الخلفاء الراشدين ﴾

هذه الدولة التي أسست مجد الاسلام ورفعت منار الدين الحنيف وبلغت خيله خطوط المحيطين ونشأت على الخشونة في العيش والاعراض عن أعراض الدنيا والتعفف عما بايدي الناس هي الدولة الأولى التي كان بها فخر الاسلام والى خلفائها الاربعة تنتهي الشهرة في المجد الذي ليس فوقه مجد وانما قامت الدولة الاسلامية على أساس هم واضعوه . وأنجبت دول الاسلام من الرجال العظام من أنجبت بفضل هم السابقون به وفتح هم فاتحوه . وقد قام في عصرهم الذي هو افضل العصور كثير من رجال الحرب والسياسة الذين أدهشت أعمالهم الباحثين في تاريخ الامم . وقضوا بعزائمهم الماضية على دولتي الروم والعجم . ومن أشهر مشاهيرهم الذين يشار اليهم بالبنان . ويعدون من إفراد ذلك الزمان . في الحرب والسياسة خالد بن الوليد فاتح العراق العربي وقسم من الشام . وأبو عبيدة بن الجراح فاتح الشام . وعمرو بن العاص فاتح مصر . وسعد بن أبي وقاص فاتح العراق العجمي وهادم عرش الاكاسرة . والاحنف بن قيس فاتح خراسان . والمغيرة بن شعبة داهية السياسة . وقد عزمنا على أن نأتي على سيرتهم في دولة الخلفاء كل رجل منهم مع خليفته الا الاحنف والمغيرة فبما انهما خدما هذه الدولة الى نهايتها فسنأتي على ذكرهما بعد آخر الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم اجمعين

أبو بكر الصدّيق

« باب »

« حاله في الجاهلية »

(نسبه وأصله)

اسم أبي بكر رضي الله عنه عبد الله واسم أبي قحافة أبيه عثمان وكان اسم أبي بكر في الجاهلية عبد الكعبة فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ولقبه عتيقاً لجمال وجهه ويقال لان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له انت عتيق من النار كما ورد في حديث رواه الترمذي وسمي صديقاً لانه بادر الى تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم . فهو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة وينسب أبو بكر الى تيم قريش فيقال التيمي وهو في التعدد مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه يلتقي هو ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند مرة بن كعب وبين كل واحد منهما وبين مرة ستة آباء . وأم أبي بكر سلمى ابنة صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم وهي بنت عم أبي قحافة وتكنى أم الخير . وكان مولد أبي بكر لسنتين وأشهر من مولد الرسول صلى الله عليه وسلم

﴿ شرفه ﴾

انتهى الشرف من قريش الى عشرة رهط من عشرة أبطن منهم أبو بكر الصديق وكانت اليه في الجاهلية الاشناق وهي الديات والمغرم ولما كان هؤلاء

الرهط الذين اليهم انتهت مكارم قريش في الجاهلية واتصلت بالاسلام منهم من صار من مشاهير الاسلام وستأتي ترجمتهم بعد فقد رأيت ان آتي هنا على بيان هذه المكارم وعامة من انتهت اليهم اكتفاء بها عن التكرار عند ذكر من يترجم منهم في هذا الكتاب فاقول

قال في العقد قال ابن المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي تسمية من انتهى اليه الشرف من قريش في الجاهلية فوصله بالاسلام عشرة رهط من عشرة أبطن

وهم هاشم . وأمية . ونوفل . وعبد الدار . وأسد . وتيم . ومخزوم . وعدي . وجمح . وسهم . فكان من هاشم العباس بن عبد المطلب يسقي الحجيج في الجاهلية وبقي له ذلك في الاسلام . ومن بني أمية أبو سفيان بن حرب كانت عنده العقاب راية قريش واذا كانت عند رجل أخرجها اذا حميت الحرب فاذا اجتمعت قريش على أحد اعطوه العقاب وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه . ومن بني نوفل الحرث بن عامر وكانت اليه الرفدة وهي ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج . ومن بني عبد الدار عثمان بن صلحة كان اليه اللواء والسدانة مع الحجابة ويقال والندوة أيضاً في بني عبد الدار . ومن بني أسد يزيد بن زمعة بن الاسود وكانت اليه المشورة وذلك ان رؤساء قريش لم يكونوا مجتمعين على أمر حتى يعرضوه عليه فان وافقه ولاهم عليه والا تخير وكانوا له اعواناً واستشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطائف . ومن بني تيم أبو بكر الصديق وكانت اليه الاشناق وهي الديات والمغرم فكان اذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه وان احتملها غيره خذلوه . ومن بني مخزوم خالد

ابن الوليد كانت اليه القبة والاعنة فاما القبة فانهم كانوا يضربونها ثم يجمعون اليها ما يجهزون به الجيش واما الاعنة فانه كان على خيل قريش في الحرب . ومن بني عدي عمر بن الخطاب وكانت اليه السفارة في الجاهلية وذلك انهم كانوا اذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً وان نافرهم حي لمفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به . ومن بني جمح صفوان بن أمية وكانت اليه الايسار وهي الازلام فكان لا يسبق بامر عام حتى يكون هو الذي تسييره على يديه . ومن بني سهم الحرث بن قيس وكانت اليه الحكومة والاموال المحجرة التي سموها لآلهتهم . فهذه مكارم قريش التي كانت في الجاهلية يتوارثونها كابراً عن كابر وكان كل شرف من شرف الجاهلية ادركه الاسلام وصله لهم وقد رأيت مكانة أبي بكر من الشرف في قريش هذا فضلا عن مكانته الخاصة عندهم واحترامهم له لكرمه وتفضله

﴿ صناعته ﴾

كانت قريش مع ما تمتّ به من النسب وتحوزه من شرف المكانة عند العرب لما انها حامية البيت وصريح ولد اسماعيل لا يستنكف أشرافها من الاحتراف أو المتاجرة والاعتماد في الاسترزاق على عمل اليد ترفعاً عن الاتكال على فضلات العجز والاعتماد على تراث الآباء فكانت لكل رجل منهم صنعة يحترف بها . ونحن ذاكرون لك هنا حرف الصحابة الذين ستأتي ترجمتهم في هذا الكتاب فقط . فمنهم عمر بن الخطاب كان تاجراً ومنهم سعد بن أبي وقاص وكان يبري النبل . ومنهم عثمان بن عفان وكان بزازاً . ومنهم عمرو بن العاص وكان جزاراً وأما أبو بكر فكان بزازاً وله رأس مال كبير للتجارة قالوا انه يبلغ أربعين ألف درهم أنفق منها خمسة وثلاثين ألفاً معونة للنبي صلى الله عليه وسلم

على مصالح المسلمين والذي بقي عنده مازال يتجر به حتى مات رضي الله تعالى عنه وأرضاه

﴿ مكانته عند قومه وسيرته فيهم ﴾

كان ذا مكانة محترمة من قومه ومروءة واحسان وتفضل فيهم ولهذا قال له ابن الدغنة يوماً انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الدهر وتقوي الضيف . وكان عالماً بالانساب وأخبار العرب رغاباً عن الدنايا عفيف النفس حرّم على نفسه شرب الخمر في الجاهلية . قال السيوطي أخرج أبو نعيم بسند جيد عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت لقد حرّم أبو بكر الخمر على نفسه في الجاهلية

اللهم ان امرأ ينشأ بين الاوثان حيث لادين زاجر • ولا شرع للنفوس قاهر • وهذا مكانه من الفضيلة واستمساكه بعري العفة والمروءة لجدير بان يتلقى الاسلام بملء الفؤاد • ويكون أول مؤمن بهادي العباد • مبادر باسلامه لارغام انوف أهل المكابرة والعناد . ممهد لهم سبيل الاهتداء بدين الله القويم الذي يجتث أصول الرذائل من نفوس المهتدين بهديه المستمسكين بمتين سببه «الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا» وأولهم أبو بكر

﴿ باب ﴾

(اسلامه وصحبته)

اسلامه :

اختلف الرواة فيمن كان أول الناس اسلاماً فقال بعضهم انه عليّ وقال

بعضهم انه أبو بكر وقال بعضهم خديجة وقد أخرج ابن عساكر من طريق الحارث عن عليّ رضى الله عنه قال (أول من أسلم أبو بكر الصديق) ومما يؤيد انه أول الناس اسلاماً قول حسان بن ثابت رضي الله عنه

اذا تذكرت شجواً من أخي ثقة — فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البرية اتقاها وأعدلها — الا النبي وأوفاها بما حملا

والثاني التالي المحمود مشهده — وأول الناس منهم صدق الرسلا

وقال السيوطي وجمع بين الاقوال بان أبا بكر أول من أسلم من الرجال وعليّ أول من أسلم من الصبيان وخديجة أول من أسلمت من النساء وأول من ذكر هذا الجمع الامام أبو حنيفة رضى الله عنه (وهو الصواب)

تجسم أبو بكر رضي الله عنه من الفضيلة وخلص جوهره من الدغل وانفطر على سلامة النفس من شوائب العناد وطهارتها من عمى البصيرة عن درك الصواب والمماراة في الحق فقامت لديه الحجة على الشرك وظهرت له محجة الرشد لاول وهلة من دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام الذي تفرس فيه الاستعداد الكامل للايمان فبادره بالدعوة فلم يتردد . وعاهده على المظاهرة فقام بما تعهد . لهذا قال عليه الصلاة والسلام (ما دعوت أحداً لى الاسلام الا كانت له كبوة غير أبي بكر)

سبق أبو بكر بالايمان فكان له الفضل على السابقين بمتابعتهم له وسبقهم ببركة اسلامه الى نيل السعادة بالاسلام لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام (ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبي بكر الا ان يكون نبيّ) أخرجه عبد الرحمن بن حميد في مسنده وأبو نعيم وغيرهما من طرق عن أبي الدرداء . ولما كان أبو بكر محبباً سهلاً وكانت رجالات قريش تألفه فقد أسلم

منهم على يديه من بني أمية عثمان بن عفان . ومن بني عمرو بن كعب طلحة بن عبيد الله ومن بني زهرة سعد بن أبي وقاص . وغيرهم كثيرون

﴿ صحبته ﴾

صحب أبو بكر النبي صلى الله عليه وسلم من حين أسلم الى حين توفى خير صحبة وكان أحب رفيق اليه وأعز صاحب لديه حمل من أجل الرسول من قريش ما تنوء به العصبة اولو القوة ووقف أمامه موقف المدافع عن الداعي الى الخير . صحبه يوم الهجرة وهو يبكي فرحاً بصحبته واستبشاراً بتخفيف اذى قريش عنه . ورافقه في الغار ثلاثاً وعينه من اجله لا تنام ولم يذق خوفاً عليه لذة الراحة حتى قال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تحزن ان الله معنا ليسكن اضطرابه ويأمن على نبيه وأنزل فيه قرآن (ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه)

علم أبو بكر ان لله عليه حقاً وان للايمان بكتابه شرطاً وهو الامتثال لما جاء به والعمل بما فيه وان الله سبحانه وتعالى يقول بهذا الكتاب (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة) فسمح بماله في سبيل الاسلام وأنفقه على النبي عليه الصلاة والسلام وكان يشتري من ماله المعذبين على الاسلام لانقاذهم من الآلام . كما كان يشتري على الاسلام ايضاً (١) حتى

---

(١) اخرج ابن جرير عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال كان أبو بكر يعتق على الاسلام بمكة فكان عتق عجائز ونساء اذا أسلمن فقال أبوه أى بني أراك تعتق أناساً ضعافاً فلو أنك تعتق رجالاً جلداً يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك قال أي أبت أنا أريد ماعند الله وأخرج الطبراني عن عروة ان أبا بكر الصديق رضي الله عنه اعتق سبعة كلهم يعذب في الله اهـ

اثنى عليه الرحمن ونوه به القرآن ومنه قوله تعالى (فأما من أعطى واتقى) الآية وقوله تعالى (وسيجنبها الاتقى) وقوله تعالى (وما لأحد عنده من نعمة تجزى) الى آخر السورة كل هذه الآيات وغيرها نزلت في أبي بكر

سمح بنفسه فلم يترك مشهداً من مشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا حضره ولازم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يحميه بنفسه ويقف في وجه الاعداء دونه

اخرج البزار في مسنده عن عليّ انه قال . اخبروني من أشجع الناس . فقالوا انت . قال اما اني ما بارزت احداً الا انتصفت منه ولكن اخبروني بأشجع الناس . قالوا لا نعلم فمن . قال (أبو بكر) انه لما كان يوم بدر فجعلنا لرسول الله عريشاً فقلنا من يكن مع رسول الله لئلا يهوى اليه احد من المشركين . فو الله ما دنا منا احد الا أبا بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يهوى اليه احد الا هوى اليه فهو أشجع الناس . قال عليّ رضى الله عنه ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وآخذته قريش فهذا يجبأه وهذا يتلتله وهم يقولون انت الذي جعلت الآلهة الهاً واحداً فو الله ما دنا منا احد الا أبو بكر يضرب هذا ويجبأ هذا ويتلتل هذا وهو يقول . ويلكم أتقتلون رجلاً ان يقول ربي الله ثم رفع عليّ بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ثم قال أنشدكم الله امؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر . فسكت القوم فقال الا تجيبوني فو الله لساعة من أبي بكر خير من ألف ساعة مثل مؤمن آل فرعون ذاك رجل يكتم ايمانه وهذا رجل أعلن ايمانه

﴿ باب ﴾

(خلافة أبي بكر)

(كلام على الخلافة)

قبل الكلام على خلافة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه نأتي بتمهيد مختصر في الخلافة الاسلامية فيه بيان يحتاج الى النظر فيه كل باحث في تاريخ الاسلام فنقول

انّ موازرة القوة للشرائع قاعدة كلية لا تتخلف سواء عن الشرائع الالهية . أو الاوضاع البشرية . وقد ترتب عليها قيام الدول في كل ملة من الملل لضرورة وجود الوازع الذي يزع الناس بالكتاب والميزان ويردهم ولو بالقوة الى حدود الشرع وذلك بدليل قوله تعالى فيمن سبق من الرسل أولي الشرائع (ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) وفيه الاشارة الى ملازمة القوة للدين ارهاباً للناس وكبحاً لجماح النفوس التي لا يقوّمها مجرد الارشاد واللين وهذه القوة انما تقوم بالوازع وأعوانه ومنهم تتألف الدولة

ومن المقرر انّ وظيفة الرسل هي تبليغ الشرائع وتقريرها بين الناس على وجه يجمع اليه شملهم ويتكفل بسعادتهم وبعد هذا لا يبقى من وظيفة الرسول لمن يخلفه في قومه الا حماية هذه الشرائع والحكم بينهم بما أنزل الله وسنه الرسول وهذه وظيفة يشترط فيها عندنا معاشر المسلمين الحرية

والعقل والعدالة والعلم ولا يشترط فيها شيء من النبوة بل النبوة رسالة الهية يتعلق بها تبليغ الدين ووضع أصول الدعوة وتقرير الشرائع وتلك رئاسة دنيوية تتعلق بها حماية الشرائع واقامة أركان الدين ولا تناسب بين الوظيفتين البتة لهذا تضافرت الاحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم على وجوب السمع والطاعة لكل من يتولى شيئاً من أمور المسلمين من أى قبيل كان بلا تخصيص بآل بيته الكرام عليهم السلام وأيد هذا سنته العملية فقد فارق هذه الدنيا الى الملأ الأعلى وليس لاحد من آل بيته أمر من أمور الناس أو ولاية من ولايات الاطراف ولما طلب منه عمه العباس أن يوليه عملا من الاعمال أبى عليه ذلك لئلا يظن بعده انه أراد بقاء الامارة فى بنى هاشم متصلة بالنبوة مع ان النبوة شيء والامارة شيء آخر

وقد علم هذا الحسن بن على رضى الله تعالى عنه لما تنازل عن الخلافة لمعاوية ابن أبي سفيان فقال (أبى الله أن يجمع النبوة والخلافة فينا) وحسب آل البيت شرفاً أن تكون النبوة فيهم

قلنا ان الخلافة رئاسة دنيوية باعتبار انها شيء والنبوه شيء آخر وانما قالوا انها رئاسة دينية وخلافة نبوية لما يتعلق بها من اقامة أركان الدين كما تقدم وهى بهذه المثابة لم تتجاوز عهد الخلفاء الراشدين وصارت بعد ذلك ملكا دنيويا بحتاً اذ ترك الخلفاء أهم أصل من أصول الامارة وهى الصلاة بالناس التى استخلف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر فكان خليفته على الامة فى الدين كما صار أميراً عليها فى أمور سياستها فى الدنيا ومن هنا اشتق اسم امارة المؤمنين اذ لا بد لكل أمة اجتمعت على دين أو أمر آخر من رئيس يضم شملها ويقيم أحكام شرائعها ويدبر سياسة ملكها لا سيما وان الاسلام جاء بقسمى السياسة والدين ولم يقتصر

على أصول التوحيد والعبادات لهذا كان وافياً بحاجات الدين والدنيا

من ثم كان أول مقصد من مقاصد المسلمين وأهل السابقة من المهاجرين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم واجتماع المسلمين على كلمة التوحيد منجها الى وجوب نصب خليفة يجمع الأمة الاسلامية على كتاب الله وسنة رسوله ويأخذ بالقوة على أيدى ذوى العبث بالنظام . الا انهم اختلفوا فيمن يولونه هذا الامر اختلافاً لا بأس فيه ما ينافى المصلحة الاسلامية بل غايته تمحيص الفكر ومحض النصيحة فيمن تجمع على تأميره كلمة الجمهور الاعظم من المسلمين ليكون أثبت قدماً فى الخلافة وأشد حجة على المخالفين فاختاروا لهذا المنصب الرفيع أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه

علم هذا كله جمهور الصحابة والمسلمين فاختاروا للخلافة رجلا من غير بيت النبوة ولو علموا خلافه لما عدلوا عن بيت النبوة البتة ولكان أولى الناس بهذا الامر العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم أو علي بن أبي طالب لسابقته فى الاسلام وكونه أقرب الناس من النبي عليه الصلاة والسلام نسبا وصهرا بعد العباس

هكذا كان أيضاً بعض بنى هاشم وبعض بنى أمية يتوقعون انه لا يعدل بعلي كرم الله وجهه أحد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن لخصوصيات ومزايا له ترشحه للخلافة وتحملهم على الاعتقاد بترجيح انتخاب المسلمين له لذلك المنصب الرفيع لا لاعتقادهم بوجوب الخلافة لبنى هاشم والا لو صح عندهم شيء من وجوب الخلافة لبنى هاشم لكان العباس رضى الله عنه أولى بها من علي لانه عم النبى صلى الله عليه وسلم ولما لم يكن الامر كذلك لم يتخلف علي عن مبايعة أبى بكر سوى ستة أشهر كما يقولون ثم بايعه بعد وهو أعظم الناس اعتقاداً بأهليته وطاعة

له وعوناً له على أمره

هذا اذا صح انه تخلف عن بيعته ولم يصح وانما وجد عليه وعلى عمر بن الخطاب لما حكما بحرمان فاطمة رضى الله تعالى عنها من ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وهى قرية بخيبر لما ثبت عند أبى بكر يومئذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا نورث ما تركناه صدقة انما يأكل آل محمد من هذ المال) حتى كان مما قاله يومئذ أبو بكر وانى والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كانت فى عهده صلى الله عليه وسلم . فوجدت عليه فاطمة وهجرته وهجره على أيضاً الى أن توفيت فاطمة رضى الله عنها بعد ستة أشهر من بيعة أبى بكر وكان لعلى من الناس وجهة حياة فاطمة فلما توفيت استنكر على وجوه الناس فالتمس مصالحة أبى بكر فصالحه وربما وهم الرواة من هذا الامر انه لما صالحه بعد ستة أشهر بايعه أيضاً وسترى من الروايات الآتية ما يدل على ان علياً لم يتخلف عن البيعة الا قليلا والله أعلم

ولكن ما الحيلة وقد رزئ هذا الدين بشراذم من المنافقين انما دخلوا فى هذا الدين للتشويش على أهله لكن وقوف الرسول صلى الله عليه وسلم على أحوالهم وهيبة الاسلام التى ملأت قلوبهم لم يمكناهم من بث الفتنة فى الدين فبثوها وبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم من طريق السياسة حتى نشأ عنها من الخلاف على الخلافة أمور رأى بعد منافقوا الاعاجم ومجوسهم الذين ابتز الاسلام ملكهم وثل عروش ملوكهم فيها لهم أمر دوساءتهم غلبة شأنه أن يتخذوها وسيلة لادخال الوهن على الاسلام وتعطيل حدوده وشعائره فخلطوا السياسة بالدين وضربوا بسلاحهما فى وجوه المسلمين فزعموا ان منصب الخلافة فرع من النبوّة لا يتخلف عن أصله .ولا يصح وضعه فى غير محله . واشترطوا فيه ما يشترط فى

النبوة من العصمة وهي لا تكون على زعمهم الا فى علي وأهل بيته والآ فلا امام يؤتم ولا جمعة تصح ولا حكم ينفذ . وهو عين التعطيل الذى رموا اليه يومئذ بسهم نفذ فى كبد المسلمين .وفرق وحدة المؤمنين .ولا يزال يتابعهم عليه الى الآن فريق الشيعة الذين أعماهم التقليد على غير علم بمن يقلدون . ولا فهم لحقيقة ما هم فيه من تعطيل أركان الدين مسترسلون . انتظاراً لامام موهوم ويوم معلوم

وامصيبتاه من هذه العقول التي لم تدرك الى الآن مرامى غرض السالفين ومهاوي ضلال الزنادقة الكاذبين الذين جعلوا مسئلة الامام المعصوم عقبة دون اقامة شعائر الدين .لن تزول من وجه الاسلام الى يوم الدين . ما دامت مدعمة باحاديث المهدي الموضوعة . واخبار الامامة المصنوعة . التي يدل على انها مكذوبة على الرسول مفتراة على أهل بيته الطاهرين ما أصاب المسلمين من جرائها من التفريق وما أصيب به الاسلام من الوهن وهذا شيء لا يرضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته كما لا يرضاه الله سبحانه وتعالى لدينه ولو صح شيء منه لما ترك الله عباده الى الآن يتخبطون فى ظلمات الفوضى بلا امام معصوم والعصمة انما هى لله وللانبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله رحمة للعالمين ولن يرسل للبشر الائمة والسلاطين المعصومين كما يريد فريق المتشيعين من الشيعة . وهذا العالم البشرى على اختلاف الأمم والشعوب ما زال ولن يزال قائماً بمن يتولى شؤون الناس من الرؤساء والسلاطين وفيهم وثنيون وملحدون من ساس الممالك كملك اليابان الآن أو كسرى فى قديم الزمان . فالظلم نسأل هداية هذه العقول الزائغة وتأليف تلك القلوب المتفرقة انه مجيب السؤال

ولنرجع الى الكلام على خلافة أبى بكر رضى الله تعالى عنه ونبدء من ذلك بذكر بيعته فنقول

﴿ بيعة أبي بكر ﴾

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أبو بكر غائبا فى أهله بالسنح فلما أتاه منه ه أقبل على الناس فوجدهم فى أختباط عظيم لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهم المصدق ومنهم المكذب فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشف عن وجهه وقبله وقال بأبى أنت وأمى قد ذقت الموتة التى كتب الله عليك وان يصيبك بعدها موتة ابداً . ثم خرج الى الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال ، أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قدمات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت . ثم تلا (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل) الآيه فكأن الناس لم يعلموا ان هذه الآية في المنزل لما أصابهم من الدهشة بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال عمر فما هو الا ان سمعت أبا بكر يتلوها فوقعت الى الارض ما تحملني رجلاى . فاللهم ارزقنا قلوبا كهذه القلوب مثبت بالايمان وثبت بحب الرسول حتى ما تصدق انه قد مات لدهشة أخذتها وحزن أصابها او نسي راعيا وبلاء فاجأها ولما لم تطق حمل هذا كله زهلت لحظة كما يشرب الطير ثم ثابت الى نفسها . وعاد اليها وعيها . بآية تلاها أبو بكر كأنما المسلمون كانوا فى ذهول عنها وهو لا ذهول الحزن ووقع ألم المصاب

وبينما كان الناس مشتغلين بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم وتجهيزه ودفنه جاء مخبر فاخبرهم باجتماع الانصار فى سقيفة بني ساعدة بقصد المداولة فى شأن الخلافة فأسرع اليهم أبو بكر وعمر وجماعة من المهاجرين ليتداركوا هذا الامر قبل افتراق الكلمة فان الانصار وقد جتمعوا بالسقيفة يبايعون سعد ابن عبادة فأعجلهم المهاجرون عن أمرهم وغلبوهم عليه وتكلم يومئذ أبو بكر فأدلى بالحجة وكان مما قاله

يا معشر الانصار انكم لا تذكرون فضلاً الا وأنتم له أهل . وان العرب لا تعرف هذا الامر الا لقريش . هم أوسط العرب داراً ونسباً قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين وأخذ بيدى عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح فكثر حينئذ اللغط بين الانصار وقال قائلهم منا أمير ومنكم أمير . ثم ان عمر لما رأي أن بعض الانصار ومنهم بشير بن سعد يرون رأى المهاجرين بجعل الخلافة في قريش وانّ الامر اذا أُجل النظر فيه ربما صعب حله قام الى أبى بكر وقال ابسط يدك أبايعك فبسط يده فسبقه بشير فبايعه وبايعه عمر وسائر الناس

وتخلف عن بيعته عليّ وطلحة والزبير وبنو هاشم لما كانوا يتوقعونه من مصير الخلافة اليهم وعدم صرفها عنهم حتى كان مما قال يومئذ عقبة بن أبي لهب

ما كنت أحسب ان الامر منصرف عن هاشم ثم منهم عن أبى الحسن

ولما رأى بنو هاشم انحياز الناس الى البيعة لأبى بكر واتفاقهم على الرضا بخلافته لما ثبت عندهم من أن الخلافة غير النبوّة وان أبا بكر أحق الناس بها بعد ان أنابه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة بالمسلمين فى حال مرضه اقبلوا على بيعته وبايعه علي رضي الله تعالى عنه بعد أيام على الارجح لا بعد ستة أشهر وقد سبق الكلام على هذا فى أول الفصل ويؤيده ما رواه الرواة عن أبى سعيد الخدري انه قال فى حديث طويل انّ أبا بكر صعد المنبر عقب البيعة فنظر فى وجوه القوم فلم يرَ الزبير فدعا بالزبير فجاء فقال قلت ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه أردت ان تشق عصا المسلمين فقال لا تثريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه

ثم نظر في وجوه القوم فلم يرَ علياً فدعا به فجاء فقال . قلت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته أردت ان تشق عصا المسلمين فقال لا تثريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه

وأخرج ابن عساكر عن على انه قال . لقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر ان يصلي بالناس (١) واني شاهد وما أنا بغائب وما بي مرض فرضينا لدنيانا ما رضي به النبي صلى الله عليه وسلم لديننا . وأخرج الدارقطني في الافراد والخطيب وابن عساكر عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سألت الله ان يقدمك ثلاثاً فأبى عليّ الاّ تقديم أبي بكر

هذا كله يدل على أن علياً رضي الله عنه لم يتردد عن بيعة أبي بكر الا قليلاً ويعضده أيضاً ان جماعة من بني أمية منهم أبو سفيان بن حرب وخالد ابن سعيد أرادوه على الخلافة يومئذ فزجرهم زجراً وقرعهم تقريعاً

هذا ولما استقرت الخلافة لأبي بكر وذلك سنة احدى عشرة صعد على المنبر ثم تكلم فحمد الله واثنى عليه ثم قال

أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينوني وان اسأت فقوّموني . الصدق أمانة والكذب خيانة . والقويّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق . والضعيف فيكم قويّ عندي حتى آخذ له الحق

---

(١) أخرج الشيخان عن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه في مرض النبي صلى الله عليه وسلم فاشتد مرضه فقال مروا أبا بكر فليصل بالناس قالت عائشة انه رجل رقيق القلب اذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس فقال مري أبا بكر فليصل بالناس فعادت فقال مري أبا بكر فليصل بالناس فانكن صواحب يوسف

إن شاء الله تعالى . لا يدع أحد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل . أطيعوني ما اطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا الى صلاتكم رحمكم الله

كلام يمثل معنى الرئاسة العامة في الاسلام تمثيلاً تستكن امامه القلوب التي أشربت حب العدل وتقصر عن التطاول الى نتائجه اعناق زعماء الحرية في كل أمة وجيل

كلام صدر عن اول خليفة في الاسلام يبشر الأمم بنزع اغلال الذل والاستعباد من اعناقهم وانتزاع قيود السيطرة الجائرة من أيديهم وأرجلهم

بل كلام يقرر صاحبه أول قاعدة للحكومة في الاسلام ويسجل الشقاء على من تسامح بها من المسلمين . فانا لله وإنا اليه راجعون . على ما كان بعد ذلك في المسلمين وما سيكون

﴿ انفاذ جيش أسامة بن زيد ﴾

لم يكن أمر البيعة اول عقبة قطعها المسلمون بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فانه لم يكد ينتشر نعيه في الآفاق . حتى ظهر النفاق واشرأبت من الامم المجاورة الاعناق . ومنع العرب الزكاة والمسلمون يومئذ في ارتباك عظيم لفقد نبيهم وقلتهم وكثرة عدوهم

كان النبي عليه الصلاة والسلام أعد قبل وفاته جيشاً وعليه مولاه أسامة ابن زيد لبعثه الى الشام فتأخر ذلك الجيش عن السفر بسبب مرضه ووفاته عليه الصلاة والسلام . ولما استقرت الخلافة لأبي بكر قال له الناس ان هؤلاء (يعنون جيش أسامة) جند المسلمين والعرب على ما ترى فقد انتقضت بك فلا ينبغي ان تفرق جماعة المسلمين عنك فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه والذي

نفسي بيده لو ظننت ان السباع تخطفني لانفذت جيش أسامة كما امر رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهو ثبات امام الاخطار واستصغار للخطب ومضاء عزيمة نافذ فى مثل ذلك الموقف الحرج الذي وقف به المسلمون لا تصدر الا عن مثل أبي بكر رضى الله تعالى عنه . ثم أمر بالتجهز وان يخرج كل من هو من جيش أسامة الى معسكره بالجرف . فخرجوا كما أمرهم وحبس أبو بكر من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الحجرة فى ديارهم فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل

لما خرج الجيش الى معسكرهم وتكاملوا أرسل أسامة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان معه فى جيشه الى أبي بكر يستأذنه ان يرجع بالناس وقال ان معي وجوه الناس وجلتهم ولا آمن على خليفة رسول الله والمسلمين ان يتخطفهم المشركون

وقال من مع أسامة من الانصار لعمر بن الخطاب ان أبا بكر خليفة رسول الله الا فأمضى فأبلغه عنا ان يولي أمرنا أقدم سناً من أسامة فخرج عمر بأمر أسامة الى أبى بكر فأخبره بما قال أسامة فاصرّ على ثبات رأيه واستمر فى مضاء عزيمته على انفاذ جيش أسامة وقال لعمر لو خطفتنى الكلاب والذئاب لانفذته كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته

قال عمر فانّ الانصار تطلب رجلا أقدم سناً من أسامة. فأدرك أبو بكر من هذا ما يخالج ضمائر القوم من تأمير أسامة عليهم لما لم يزل فى نفوسهم من آثار الفخر الجاهلية والاستمساك بعرى التفاضل بالانساب فرأى ان يمحو من نفوسهم كل أثر من آثار الكبرياء والتفاضل الا بالتقوى والاعمال وان يبدأهم

من ذلك بنفسه فماذا صنع ؟

خرج أبو بكر حتى أتاهم وأشخصهم وأشيعهم وهو ماش وأسامة راكب فقال له أسامة يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن فقال والله لا نزلتَ ولا أركب وما عليّ ان اغبر قدميّ ساعة في سبيل الله . فلم يسع الانصار لما رأوا خليفة رسول الله ماشياً في ركاب اسامة الاّ السكوت ولم يبدر من احد منهم بادرة قط بل ساروا صحبة أسامة وابدوا ما عرفوا به من الاخلاص في الجهاد والذب عن حياض الاسلام والاستماتة في قتال الاعداء فرضي الله تعالى عنهم اجمعين

ولما اراد أبو بكر ان يرجع قال لأسامة ان رأيت ان تعينني بعمر فافعل فأذن له

امام أمره نافذ في جيوشه وسلطته مبسوطة على قواده احب استبقاء عمر بن الخطاب عنده ليستعين برأيه فلم يشأ أخذه من الجيش الا باذن قائده أسامة بن زيد تنبيهاً لمن فيه الى وجوب الطاعة لامره وعدم الحيد عن اشارته ما دام فيهم اميراً ولهم قائداً وقد كان في استطاعته ان يشافه الجيش بمثل هـذا التنبيه لو لم ير ان يبدأهم بنفسه ويؤدب نفوسهم بأدبه وهيهات هيهات ان تلد الولاّدات مثل أبي بكر وعمر

هذا وقد أوصاهم أبو بكر قبل رجوعه عنهم بوصية قصارى ما يقال فيها ان الدول المتمدنة الآن مع حرصها على تخفيف بلاء الحروب ودعواها العريضة في خدمة الانسانية والانسان ، ومراعاة حقوق العمران ، لم تستطع واحدة منهن ان تقيد جيوشها بمثل مضمونها او يرتبطن جميعاً بقاعدة من قواعدها وها هي بنصها

لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الاّ للاكل . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على قوم فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً

ثم قال اندفعوا باسم الله وأوصى أسامة ان يفعل ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فسار وأوقع بقبائل من قضاعه وأغار على أُبني موضع بناحية البلقاء [1] وغنم وعاد بعد اربعين يوماً وقيل بعد سبعين يوماً

﴿ باب ﴾

(الكلام على الردة)

« بحث في الردة »

ربما يتوهم متوهم من ايراد الكلام على أهل الردة على علاته ان الردة انما هى ارتداد العرب عن الاسلام الى الشرك كما توهم بعضهم في مناظرة جرت بيني وبينه من بضع سنين فى مجلة الهلال التى تطبع فى مصر والحال أن ردة العرب يومئذ لم تكن بهذه المثابة وانما اعتبرهم أبو بكر مرتدين لتركهم ركنا من اركان الدين وهو الزكاة . وللعلماء والمؤرخين مباحث بهذا الشأن احببت ان الخصها فى هذا الكتاب ليظهر بها معنى الردة يومئذ على وجهه الصحيح فاقول

«١» في الجنوب الغربى من الشام

رأى العرب ضعف المسلمين واضطرابهم بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام لا سيما لما بلغهم استفحال امر مسيلمة الكذاب وطليحة الأسدي فأخذوا يتناجون في الامتناع عن دفع الزكاة التي ثقلت عليهم وعدوها كالاتاوة التي لا تطيب نفس العرب بدفعها ولم تلبث ان فشت هذه القالة بينهم حتى أظهروا الامتناع وطردوا عمال الزكاة ولما انتهى الخبر الى أبي بكر رضي الله تعالى عنه جمع الصحابة للشورى فاختلفوا في هل يقاتل العرب على تركهم شيئاً من الدين كما لو قوتلوا عليه كله

(قال الشهرستاني في الملل والنحل) فقال قوم لا نقاتلهم قتال الكفرة وقال قوم بل نقاتلهم حتى قال أبو بكر لو منعونى عقالا [1] مما أعطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ومضى بنفسه الى قتالهم ووافقه الصحابة بأسرهم وقد ادّى اجتهاد عمر في ايام خلافته الى ردّ السبايا والاموال اليهم واطلاق المحبوسين منهم

وفى سياق حكاية اقرار الصحابة على قتال أهل الردة بيان كاف فى حقيقة تلك الردة التي قوتلوا عليها فقد نقل ابن شاكر فى عيون التواريخ أن أبا بكر لما جمع الصحابة للشورى فى قتال العرب يومئذ أشار عمر بعدم قتالهم فقال أبو بكر والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) فى مشكاة المصابيح نقلاً عن النهاية ــ أراد بالعقال الحبل الذي يعقل به البعير الذي كان يؤخذ فى الصدقة لان على صاحبها التسليم وانما يقع القبض بالرباط وقيل أراد ما يساوي عقالاً من حقوق الصدقة اذا أخذ المصدّق أعيان الابل قيل أخذ عقالا واذا أخذ أثمانها قيل أخذ نقداً اهـ وقال المبرد فى الكامل ان المصدق اذا أخذ من الصدقة مافيها ولم يأخذ ثمنها قيل أخذ عقالاً واذا أخذ الثمن قيل أخذ نقداً

لقاتلتهم على منعها . فقال عمر كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لااله الا الله[1] وأن محمدا رسول الله فمن قالها عصم مني ماله ودمه الا بحقها وحسابهم على الله)

فقال أبو بكر . والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال وقد قال الاّ بحقها . قال عمر رضي الله عنه فوالله ما هو الا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت انه الحق اه

وذكر العلامة أبو الحسين عروة الحنبلي في رسالة البدع في الجزء العشرين من كتاب الكواكب[2] أن قتال الصديق رضي الله تعالى عنه لاهل الردة انما كان لمنعهم الزكاة فقط وأفاض في هذا البحث مبينا أن من ترك شيئاً من الدين يقاتل عليه كما لو قوتل عليه كله والزكاة من الدين فاجتهاد أبي بكر أداه لقتال العرب عليها اه

وفي حديث ابن مسعود الذي يقول فيه (وسيأتي بتمامه) فوالله ما رضي منهم الا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية . فاما الخطة المخزية فان يقروا بان من قتل منهم في النار . دليل على أن الردة لم تكن ردة عن الاسلام الى الشرك والا فما معنى اقرارهم على أن من قتل منهم في النار ولو كانوا على الشرك فهم في النار بالطبع انكروا أو أقروا

وانما حمل العرب على منع الزكاة استثقالهم لها وعدها كالاتاوة بدليل

(١) هكذا في الاصل ولم نرد في هذه الرواية وانما وردت في روايه حتى يشهدوا ان لا الخ (٢) هذا الكتاب موجود فى مكتبه دمشق الشام فى جمع الملك الظاهر وهناك اطلعت عليه وهي المكتبة التي عنى بجمعها من بقايا الكتب الموجودة فى المدارس القديمة المرحوم مدحت باشا لما اسندت اليه ولاية سورية سنة ١٢٩٥ وأحسن ما فيها هذا الكتاب والتاريخ الكبير للحافظ ابن عساكر في نيف وأربعين مجلداً

ما رواه المؤرخون من أن عمرو بن العاص مر عند منصرفه من جيفر على بلاد بني عامر فنزل بقرة بن هبيرة وقرة يقدم قدماً ويؤخر أخرى ومعه عسكر من بني عامر فذبح له وأكرم مثواه فلما أراد الرحلة خلا به قرة وقال ياهذا ان العرب لا تطيب لكم نفسا بالاتاوة فان اعفيتموها من أخذ أموالها فتسمع لكم وتطيع وان أبيتم فلا تجتمع عليكم . وكان عمرو من صناديد قريش ودهاتها فلم يعبأ بقوله بل أظهر لديه من الشهامة والشمم فوق ما ينتظر منه حيث قال له . أكفرت ياقرة وتخوفنا بالعرب فوالله لاوطئن عليك الخيل في حفش أمك وأحفاش بيت ينفرد فيه النفساء ثم قام وذهب

هذه حقيقة الردة فيمن لم يرتد حقيقة لكن شايع مسيلمة الكذاب وطليحة الأسدى قد بسطناها ليكون القارئ منها على علم وهي وأن تكن بتلك المثابة الآ انها كانت تدل على شر عظيم يلحق بالمسلمين لو استفحل أمرها واستهين بشأنها ولكن نهض لها أبو بكر رضى الله تعالى عنه بعزيمته الماضية . وحكمته السامية . فجزاه الله عن الاسلام خير الجزاء

﴿ قتال أهل الردة ﴾

اعلم انه كما كان للمهاجرين والانصار فضل وسابقة في نصرة الاسلام ومظاهرة النبي عليه الصلاة والسلام حتى طأ من بهم من إشراف من ناواه. واستخذى من عاداه . فلعامة قريش أيضاً مثل هذا الفضل بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام فان قريشاً استقبلت بصدورها حوادث الردة المريعة ونيرانها المتأججة وأخذت على عاتقها استخضاع العرب وقد ارتدت قبائلها عامة أو خاصة الا ثقيفاً وقريشاً فاقتحمت رجالات قريش بالمهاجرين والانصار وثقيف وبعض الاحلاف ذلك الفجاج الذى يرتج بأهل الردة ارتجاجا .

وخاضت بخيلها من حروب القوم بحراً عجاجا . وممن عقد له يومئذ من رجالات قريش خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص وخالد ابن سعيد والمهاجر بن أبي أمية ولم يلبث ان أطفأ أبو بكر نيران الردة بامثال هؤلاء الرجال حتى رمى برجال قريش أيضاً جيوش القياصرة وجنود الأكاسرة وتابعه على ذلك عمر بن الخطاب فكان من قوادهما في استخضاع تلك الجيوش الجرارة وتدويخ تلك الممالك العظيمة الشاسعة التي شيدت فيها صروح الاسلام وذكر على منابرها اسم محمد عليه الصلاة والسلام . خالد بن الوليد وخالد بن سعيد وعمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان ومعاوية ابن أبي سفيان وعياض بن غنم وحبيب بن مسلمة الفهرى وسعد بن أبي وقاص واضرابهم من صناديد قريش ورؤسائها الذين ذللوا من الصعاب وقطعوا من العقاب ولاقوا من الاهوال ما لا يحلم بذكره الانسان ، ولا يدانيهم فيه من مشاهير العالم مدان ، كما سترى بعدُ الا انه يؤخذ على بعضهم تساهلهم في أمور الفتن العظمى حتى استشرى شرها ، وعظم على الأمة ضررها ، وهي شؤون وان كانت تحدث في كل قوم ، وتصاب بها الدول في كل عصر ، الا أن قريشاً كانت أولى في مثل عصرها الذي نزل فيه القرآن باطراح أسباب التخاذل والمزاحمة . والاخذ باسباب الحزم والتضافر . بعد اذ انتهت اليهم السيادة في الاسلام كما انتهت في الجاهلية ومع هذا فلا يسعنا نكران فضلهم على المسلمين بخدمتهم للاسلام في أيام الفتوح العظيمة وأما ما عدا هذا فلهم فيه شؤون ربما فاتهم فيها الحزم أو قام لهم في مقامهم ذلك عذر وليست العصمة الا لله وللرسول ولله في خلقه شؤون

نعود الى ذكر قتال أهل الردة وذلك الموقف الحرج الذى وقف فيه

المسلمون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقول

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه لولا ان الله منّ علينا بأبي بكر . أجمعنا على أن لا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون وان نأكل قرى عربية ونعبد الله حتى يأتينا اليقين فعزم الله لأبي بكر على قتالهم فوالله ما رضي منهم الا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية فاما الخطة المخزية فان يقروا بأن من قتل منهم في النار ومن قتل منا في الجنة وان يدوا قتلانا ونغنم ما أخذنا منهم وانّ ما أخذوا منا مردود علينا واما الحرب المجلية فان يخرجوا من ديارهم

بلغ بعزيمة أبي بكر وعظيم رأيه بعد اذ رأي ما أصاب المسلمين من الغم ان آلى على نفسه ان لا يدع العرب يقر لهم قرار الا والسيف آخذ برقابهم والاسلام ضارب بينهم بجرانه وبينما هو يطاول في الامر انتظاراً لرجوع أسامة بجيش المسلمين أعجلته عبس وغطفان وأسد وطيء وكان بعضهم نازلا بذى القصة وبعضهم بالابرق فارسلوا اليه وفداً يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فردهم خائبين فرجعوا وأخبروا القوم بقلة المسلمين وضعفهم وقد غرتهم كثرتهم وأعماهم الجهل عن أنّ مع المسلمين قوة الايمان واليقين وفيهم من الصيد الصناديد وليوث الحرب الشجعان مثل عمر وعليّ وطلحة والزبير الذين لا يفل لهم حد ولا يدرك لهم جد

خشى أبو بكر بعد مسير الوفد من البيات فجعل على أنصار المدينة علياً وطلحة والزبير وابن مسعود وأمرهم بملازمة المسجد خوف الغارة من العدو فما لبثوا ثلاثا حتى طرق العدو المدينة غارةً مع الليل وخلفوا بعضهم بذى حسى ليكونوا لهم رداً فوافوا ليلا الانقاب وعليها المقاتلة فمنعوهم وارسلوا الى أبي

بكر فخرج بالمسلمين على النواضح فردوا العدو واتبعوهم حتى بلغوا ذا حسى[1] فخرج عليهم الرده بانحاء قد نفخوها وفيها الحبال ثم دهدهوها[2] على الارض فنفرت ابل المسلمين وهم عليها ورجعت بهم الى المدينة ولم يصرع أحد منهم

ثم خرج أبو بكر ليلا على تعبية فما طلع الفجر الا وهم والعدوّ على صعيد واحد فما شعروا بالمسلمين حتى وضعوا فيهم السيوف فولوا الادبار وأتبعهم أبو بكر حتى نزل بذى القصة وكان أول الفتح ووضع بها النعمان بن مقرّن فى عدد ورجع الى المدينة فطرقت المدينة صدقات نفر كانوا على صدقة الناس وقدم فى أثناء ذلك أسامة بن زيد بجيش المسلمين فاستخلفه أبو بكر على المدينة وجنده معه ليستريحوا ويريحوا ظهرهم ثم خرج فيمن كان معه فقام اليه عليّ والمسلمون وناشدوه الله ليقيم فأبى وقال والله لأواسينكم بنفسي وسار الى ذى حسى وذى القصة حتى نزل بالابرق فقاتل من به فهزمهم وغلب على بني ذبيان وبلادهم وحماها لدواب المسلمين ثم رجع الى المدينة فلما استراح أسامة وجنده وكان قد جاءهم صدقات كثيرة تفضل عليهم بادر أبو بكر الى تسيير الجيوش الى أهل الردة

﴿ تسيير الجيوش الى أهل الردة ﴾

عقد أبو بكر لقتال أهل الردة احد عشر لواء

الأول عقده لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد فاذا فرغ سار الى مالك بن نويرة بالبطاح ان أقام له

---

١ ذو القصة وذو حسى « أو ذو خشب على رواية البعض » اماكن قرب المدينة لجهة نجد وهي منازل القوم

٢ أي نفخوها والانحاء هي القرب

(٢) لعكرمة بن أبي جهل القرشي وسيره الى مسيلمة

(٣) المهاجر بن أبي أمية المخزومي القرشي وأمره بجنود العنسي في اليمن ومعونة الابناء على قيس بن مكشوح ثم يمضي الى كندة بحضرموت

(٤) خالد بن سعيد بن العاص القرشي وبعثه الى مشارف الشام

(٥) عمرو بن العاص القرشي وأرسله الى قضاعة

(٦) حذيفة بن محصن الغلفاني من حمير وأمره باهل دبا

(٧) عرفجة بن هرثمة البارقي من الازد وأمره بمهرة

(٨) شرحبيل بن حسنة حليف بني زهرة وأرسله في أثر عكرمة بن أبي جهل واذا فرغ يلحق بقضاعة

(٩) معن بن حاجز السلمي وأمره ببني سليم ومن معهم من هوازن

(١٠) سويد بن مقرّن من أوس وأمره بتهامة باليمن

(١١) العلاء بن الحضرمي حليف بني أمية ووجهه الى البحرين

لما سير أبو بكر هؤلاء الامراء كتب لهم عهداً ستأتى صورته فى باب كتبه وخطبه وكتب لجميع المرتدين أيضاً كتابا وسيره مع الرسل وستأتى صورته أيضاً

﴿ باب ﴾

﴿ حروب الامراء مع أهل الردة وأخبارهم ﴾

﴿ طليحة الأسدى ﴾

هو طليحة بن خويلد الأسدي من بني أسد بن خذيمه وكان قد تنبأ

فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثر جمعه ومات النبي صلى الله عليه وسلم وهو على ذلك فتبعه كثير من العرب عصبية لهذا كان أكثر أتباعه من أسد وغطفان وطيء ولما قصد مهاجمة المدينة أمدّ هذه القبائل بأخيه حبال فافترقوا فرقتين فرقة أقامت بالربذة وفرقة سارت الى ذى القصه ثم أوفدوا وفداً الى أبى بكر يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فأبى عليهم أبو بكر ذلك وجرى من أمرهم وأمر المسلمين ما تقدم قبل، ولما سار امراء المسلمين بالجيوش قصد خالد بن الوليد رضى الله عنه طليحة فهزمه وفرق جمعه وأسر منهم عيينة بن حصن الفزارى كما سيأتي تفصيل ذلك فى سيرة هذا البطل المغوار ان شاء الله

ولما تفرق هذا الجمع أقبل فُلاًّ لهم الى امرأة اسمها أم زمل سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر كانت سبيت فى مدة الرسول صلى الله عليه وسلم ووقعت لعائشه فاعتقتها فرجعت الى قومها ولما اجتمع اليها هذا الفل أمرتهم بالقتال فجاءها خالد ففلّ جمعها وقتلها

﴿ تميم وسجاح ﴾

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر على بطون بنى تميم ستة أمراء وهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم وصفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة فلما وقع اليهم الخبر بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم سار صفوان بن صفوان الى أبى بكر بصدقات بنى عمرو ووافى الزبرقان فاتبع صفوان بصدقات الرباب وهى ضبة بنت أدّ بن طابخة وعدىّ وتيم وعكل وثور بنو عبد مناة بن أدّ بصدقات عوف والابناء وكلها من بطون تميم ومنها قيس ابن عاصم ومالك بن نويرة فأما قيس فندم ولما أظله العلاء بن الحضرمي أخرج

الصدقات فتلقاه بها ثم خرج معه وأما مالك فتحير وتشاغلت تميم بعضها ببعض فقام من بقى على الاسلام فى وجه من ارتد وبينما هم على اختلافهم اذ جاءتهم من الجزيرة سجاح بنت الحرث بن سويد بن عقفان التميمية وكانت ورهطها فى اخوالها من بنى تغلب فى الجزيرة فادعت النبوة وجاءت تريد غزو أبى بكر فطلبت من مالك بن نويرة الموادعة فوادعها وردها عن غزو المدينة وحملها على غزو المسلمين من بنى تميم فجاءهم أمر أعظم مما هم فيه لاختلافهم ففروا أمامها أما هى فسارت تريد المدينة حتى بلغت النباج قرية بالبادية فأغار عليها أوس بن خزيمة الهجيمى فى بنى عمرو من تميم وأسر بعض رجالها ثم تحاجزوا على ان يطلقوا أسراها وتطلق أسراهم وترجع فلا تجتاز عليهم فيئست بذلك من الذهاب الى المدينة وانقلبت تريد اليمامة وجرى لها مع مسيلمة امور لا محل لذكرها هنا ثم رجعت الى الجزيرة ولم تزل فى تغلب حتى نقلهم معاوية عام المجاعة وجاءت معهم وحسن اسلامها واسلامهم

﴿ مالك بن نويرة ﴾

ندم بنو تميم كلهم على ما صنعوا وتراجعوا الى الاسلام وأدّوا الصدقة الاّ مالك بن نويرة فانه بقي متردداً بين الامرين واجتمع اليه قومه بالبطاح فسار اليه خالد بعد ان انتهى من امر طليحة فلما علم مالك بمسيره اليه أمر قومه فتفرقوا في المياه فبث خالد السرايا في أثرهم فأتي بجماعة منهم أسرى وفيهم مالك فأمر بقتلهم فقتلوا وسيأتي تفصيل هذا الخبر في سيرة خالد بن الوليد

﴿ مسيلمة وأهل اليمامة ﴾

كان مسيلمة ممن وفد مع قومه بنى حنيفة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما رجع ومن معه الى منازلهم باليمامة ادعى مسيلمة النبوّة وانه

أشرك مع محمد بالامر واجتمع عليه بنو حنيفة وكانوا أربعين الف مقاتل ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث أبو بكر البعوث عقد لعكرمة ابن أبي جهل الى اليمامة كما تقدم وأمده بشرحبيل بن حسنة فلم يتربص ريثما يصله المدد بل تعجل ليكون له الفضل خاصة وتقدم فواقع القوم فنكب فكتب الى أبي بكر بالخبر فغضب عليه أبو بكر وكتب اليه لا أرينك ولا تراني فتوهن الناس امض الى حذيفة وعرفجة فقاتل أهل عمان ومهرة ثم تسير أنت وجندك تستبرؤن الناس حتى تلقى مهاجر بن أبي أمية باليمن وحضرموت

وكتب الى شرحبيل بالمقام الى أن يأتيه المدد مع خالد بن الوليد فاذا فرغوا من مسيلمة تلحق بعمرو بن العاص تعينه على قضاعة . فلما رجع خالد من البطاح الى أبي بكر واعتذر اليه عما صنع بمالك وقومه فقبل عذره ورضي عنه وجهه الى مسيلمة وأوعب معه المهاجرين والانصار وعلى الانصار ثابت بن قيس بن شماس . وعلى المهاجرين أبو حذيفه وزيد بن الخطاب . وسار خالد للقاء مسيلمة فأمده أبو بكر بسليط ليكون رداً له لئلا يؤتي من خلفه فلما علم مسيلمه ومن معه بدنوّ جنود خالد خرجوا فعسكروا في منتهى ريف اليمامة واستنفروا الناس فنفر اليهم عدد كثير

تقدم خالد وعلى مقدمته شرحبيل ولما كان على ليلة من معسكر بني حنيفة التقى بسريّة منهم راجعة من بلاد بني تميم وعامر لادراك ثأرٍ لهم وعليهم مجاعة بن مرارة من سادات بني حنيفة فأمر بهم خالد فقتلوا الا مجاعة فانه استبقاه لشرفه ثم سار خالد حتى التقى بجيش المرتدين في مكان يدعى بعقرباء وجرى بينهم قتال شديد بيعت فيه الارواح بيع السماء وأصيب

المسلمون بناس من ذوي البصائر والشرف وانتهى الامر بقتل مسيلمة وانهزام بنى حنيفة وسيأتي هذا الخبر مفصلا في سيرة خالد بن الوليد ان شاء الله تعالى فان هذا الموطن من مواطنه المظيمة فى حروب الردة

﴿ ردة أهل البحرين ﴾

كان أهل البحرين وهم قبائل من ربيعة قد وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم فى حياته وأسلموا فأمر عليهم المنذر بن ساوي فلما توفى عليه الصلاة والسلام كان المنذر مريضاً فتوفى عقبه فارتد أهل البحرين فأما بكر فتمت على ردتها وأما عبد القيس فراجعت الاسلام بهمة الشهم الجليل الجارود بن المعلّى العبدي وكان جاء الى النبي عليه الصلاة والسلام وتفقه فى الدين وامتلأ قلبه بنور اليقين وعاد الى قومه عبد القيس فكان فيهم الى حين الردة فجمعهم لما قالوا لو كان محمد نبيا لم يمت وقال لهم: أتعلمون انه كان لله أنبياء فيما مضى . قالوا نعم . قال فما فعلوا قالوا ماتوا . قال فان محمداً قد مات كما ماتوا وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله : فأسلموا وثبتوا على اسلامهم

هكذا تسعد الأمم بواحد وتشقى بآخر وليس بين الشقاء والسعادة الا عقبة لا يقطعها الا المخفون من الشهوات الغالبون على هوى النفس المالكون للارادة التى لا سلطان عليها من الشهوات ولا قائد لها من التقليد وانما هي مطلقة فى عالم الحس تتناول منه ما طاب وتنبذ ما خبث

فكما مني الاسلام بناس من المطلّين الذين ران الهوى على قلوبهم، واستحكمت عادة الضلال والاضلال في نفوسهم، فأثاروا ثائرة الفتنة وأبوا الا الاسترسال فيما وجدوا عليه أباءهم من الضلال فقد رزق ناساً على العكس من هولاء قد غلبت ارادتهم على الهوى، واستنارت بصائرهم بنور الهدى . فكانوا

للحق أنصاراً ، وللاسلام أعوانا ، وفيمن كان من هؤلاء فى أهل الردة فاهتدى به قومه وسعدت بالتمسك بعرى الاسلام عشيرته فكانت عوناً للمسلمين على المرتدين هذا الشهم أي الجارود بن المعلّى العبدي وصفوان بن صفوان التميمى وعدي بن حاتم الطائى وأمثالهم من أهل البصيرة والرأى الذين أراد الله أن يضرب بهم وجوه المرتدين ، ويكونوا عوناً للمسلمين ، لتعلو كلمة هذا الدين ، ولو كره المشركون

لما اجتمع الى الجارود قومه من المسلين واستمروا على الاسلام خرج اليه الحطم بن ضبيعة من بكر بن وائل ومعه جمع عظيم من المشركين والمرتدين ليستبيحوا حماه وينتقموا على زعمهم ممن جاراه فنزلوا على القطيف وهجر وحصروا أصحاب الجارود فارسل أبو بكر كما تقدم العلاء بن الحضرمي لاهل البحرين فلما كان بحيال اليمامة لحق به ثمامة بن أثال الحنفى فى مسلمة بنى حنيفة وقيس ابن عاصم المنقري فى قومه واتاه كثير من أهل اليمن فسلك بهم الدهناء حتى اذا كان فى بحبوحتها نزل وأمر الناس بالنزول في الليل فنفرت إبلهم باحمالها فما بقي عندهم بعير ولا زاد ولا ماء فلحقهم من الغم ما لا يعلمه الا الله ووصى بعضهم بعضاً فدعاهم العلاء فاجتمعوا اليه فقال ما هذا الذى غلب عليكم من الغم فقالوا كيف نلام ونحن ان بلغنا غداً لم تحم الشمس حتى نهلك

حقاً انه لموقف يروّع القلوب ويستدعى اليأس من الحياة ، إبل نافرة بالزاد والماء ، وصحراء رملية تتلظى تلظي الرمضاء ، منقطعة عن العمران لا يعهد فيها الماء ولا يقطعها الا المزود بالكفاية توسطها المسلمون وهم لا زاد لديهم ، ولا ماء يبل صداهم ، فماذا يصنعون ؟

رحماك اللهم فانّ العلاء آلى ان لا تهلك هـذه العصابة المسلمة في مثل

هذه الدهناء ما دام في سبيل الله سعيها، والى نصرة الحق قصدها ، فقال لهم: لن تراعوا أنتم المسلمون وفي سبيل الله وأنصار الله فابشروا فوالله لن تخذلوا : فلما صلوا الصبح دعا العلاء ودعوا معه فلمع لهم الماء فمشوا اليه وشربوا واغتسلوا فما تعالى النهار حتى أقبلت الابل تجمع من كل وجه فأناخت اليهم فسقوها .

فكأن الله سبحانه وتعالى امتحن بهذه النازلة قلوباً لم يتمكن منها اليقين وأسعفهم بعد الشدة برحمته ليوقنوا انه لا يتخلى من عباده المخلصين

ثم أرسل العلاء الى الجارود يأمره أن ينزل بالحطم مما يليه وسار هو فيمن معه حتى نزل عليه مما يلي هجر فاجتمع المشركون الى الحطم الا أهل دارين واجتمع المسلمون الى العلاء وخندق كل على نفسه وكانوا يتراوحون القتال فاذا أمسوا رجع كل الى خندقه حتى اذا كان ليلة سمع المسلمون ضوضاء من ناحية المشركين فأرسل العلاء من يستعلم الخبر فجاء بأنهم سكارى فبيتهم المسلمون شربيات ووضعوا فيهم السيف كيف شاؤا حتى هربوا وهم بين مقتول ومأسور وقتل زعيمهم الحطم ثم قصد فلهم جزيرة دارين في الخليج الفارسي وعبروا اليها في السفن فعبر خلفهم المسلمون وقاتلوهم هناك فظفروا بهم وتم النصر للمؤمنين فكتب العلاء الى أبي بكر بالفتح

﴿ عمان ومهرة ﴾

لما أسلم أهل عمان في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولى عليهم الاخوين جيفراً وعياداً ابني الجلندي وكان قد نبغ في عمان ذو التاج لقيط بن مالك الازدى وكان يسمى في الجاهلية الجلندي وادعى بمثل ما ادعى من تنبأ وغلب على عمان مرتداً فتبعه كثير من أهلها فخافه ابنا الجلندي فعاذ بالجبال وبعث

جيفر الى أبي بكر فبعث اليه حذيفة بن محصن وعرفجة بن هرثمة كما تقدم الخبر عن هذا وأرسل في أثرهما عكرمة بن أبي جهل بعد هزيمته في اليمامة فلحقهما قبل أن يصلا عمان فلما قاربوها كاتبوا جيفراً فأتاهم وعسكروا بصحار عاصمة عمان أما لقيط فانه جمع جموعه وعسكر بدبا فالتقى الفريقان واقتتلا قتالا شديداً كاد المسلمون ينهزمون فيه لولا أن الله منّ عليهم بمدد عظيم من بني ناجية وعليهم الخريت بن راشد ومن عبد القيس وعليهم سيحان بن صوحان وغيرهم فاستظهروا بهم وهزموا المشركين ثم سبوا الذرية وقسموا الغنيمة وبعثوا الى أبي بكر بالخمس مع عرفجة وأقام حذيفة بعمان يسكن الناس

وأما مهرة فان عكرمة بن أبي جهل سار اليهم لما فرغ من عمان ومعه جمع من ناجية وعبد القيس وراسب وسعد فاقتحم بلادهم فوافق بها جمعين من مهرة مختلفين أحدهما مع سخريت رجل منهم والثاني مع المصبح أحد بني محارب ومعظم الناس معه فالتمس عكرمة الحيلة بأن كاتب سخريتا فأجابه وأسلم وكاتب المصبح يدعوه فلم يجب فرأى أن يمحو ما لحقه من غضب أبي بكر لانهزام جيشه في حرب مسيلمة فقاتل المرتدين قتالا شديداً فانهزموا وقتل رئيسهم وأصاب المسلمون ما شاؤا من الغنائم فبعث عكرمة بالاخماس الى أبي بكر مع سخريت وأقام هنالك يدبر الامور ويدعو الناس الى الاسلام حتى اجتمع الناس على ما يحب وضرب الاسلام بجرانه

﴿ ردة اليمن ﴾

لما فتحت اليمن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولى عليها باذان الفارسي الذي كان عاملا للاكاسرة على اليمن ثم دان بالاسلام وكان مقره صنعاء فلما مات قسم النبي صلى الله عليه وسلم عمله على ولده شهر ونفر من

الصحابة منهم أبو موسى الاشعري وخالد بن سعيد بن العاص وغيرهم فثار عليهم رجل من عنس اسمه عبهلة ولقبه ذو الخمار وشهرته الاسود فادعى النبوّة فأجابه بعض العرب ثم جرت معـه أمور يطول ذكرها انتهت بقتله وأقام أصحاب الاسود يترددون بين صنعاء وعدن لا يأوون الى أحد وتراجع عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أعمالهم وبعثوا الى المدينة بالخبر وقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما شاع خبر الوفاة ارتد قيس بن عبد يغوث وكاتب المنهزمين من جنود الاسود فاجتمعوا اليه وأراد أن يحتال في قتل كبار الابناء (وهم جماعة أصلهم من فارس واستوطنوا اليمن وهم الذين قتلوا الاسود العنسى) فهيأ لهم طعاما ودعاهم اليه فظفر بواحد منهم وهو دا ذويه ونجا الباقون وهما أثنان فيروز وخشنش[1] فطلبهما فامتنعا بقبيلة خولان فرجع قيس الى صنعاء فاستأثر بها وعمد الى عيالات الابناء فغرّ بهم وأخرجهم فلما علم بذلك فيروز استمد بنى عقيل بن ربيعة وعك فساروا واستخلصوا عيالات الابناء التي سيرها قيس وقتلوا من معها من الرجال ثم انصرفوا الى فيروز فقاتل بهم قيساً ورجاله حتى هزمهم وفى غضون ذلك أتاهم المهاجر بن أبي أمية الذي عقد له أبو بكر لواء وسيره لقتال جنود العنسى ومعاونة الابناء وجاء على أثره عكرمة بن أبي جهل بعد ان انتهى من عمان ومهرة فساعدا الابناء على قتال جنود قيس بن عبد يغوث حتى انهزموا وأسر قيس وعمرو ابن معد يكرب الزبيدي الذي كان ارتد واتبع الاسود فسيراهما الى أبى بكر

كان أبو بكر رضى الله تعالى عنه يتألف القلوب بالاناة ولا يتعجل بالعقوبة فلما وصل اليه قيس أنبه على ما فعل فأنكر أن يكون قارف من أمر داذويه

(١) وفي تاريخ الطبرى جشيش

شيئاً ولم يكن هناك دليل ظاهر على قتله له لان القتل كان خلسة فتجافى له عن دمه وتجاوز له عن سوء عمله وقال لعمرو بن معد يكرب أما تستحي انك كل يوم مهزوم أو مأسور [1] لو نصرت هذا الدين لرفعك الله . فقال لا جرم لأقبلن ولا أعود ورجعا الى عشائرهما مؤمنين وكان لعمرو بن معد يكرب البلاء الحسن في فتوح نهاوند بعد ، وفيها استشهد على ما سترى

﴿ كندة وحضرموت ﴾

كان زياد بن لبيد الانصاري عاملا على كندة وحضرموت بالنيابة عن المهاجر بن أبي أمية الذي تولى هذا العمل من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما تأخر بالمدينة بسبب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم استخلف على عمله زياداً وكان قد ولي صدقات بني عمرو بن معاوية من كندة بنفسه فقدم عليهم فوقع بينه وبينهم خلاف على بكرة وقع عليها ميسم الصدقة غلطاً فطلبوا اليه استبدالها بغيرها فأبى وأغلظ على شيطان بن حجر وأخيه العدّاء فاستغاثا بحارثة بن سراقة بن معد يكرب فأقبل الى زياد وحل عقال الناقة وبعثها وقام دونها فأمر زياد شبابا من حضرموت والسكون فمنعوه وكتفوه وكتفوا أصحابه وأخذوا البكرة وتصايحت كندة وغضبت بنو معاوية لحارثة وأظهروا أمرهم وغضبت حضرموت والسكون لزياد وتوافى عسكران عظيمان من هؤلاء ولم تحدث معاوية شيئاً خوفاً على أسراهم ولم يجد أصحاب زياد سبيلا يتعلقون به عليهم وأمرهم زياد بوضع السلاح فلم يفعلوا ونهد اليهم ليلا فقتل منهم وتفرقوا

(١) كان عمرو قد انهزم من خالد بن سعيد بن العاص في أول ردته وأخذ منه خالد سيفه الصمصامة ولم يزل عنده حتى استشهد بالشام فصار الى بني العاص ثم الى بني أمية ثم الى بني العباس الى عهد الواثق حيث أمر بدفعه الى صيقلي ليسقنه فتغير

لما تفرق القوم اطمأن زياد من جهتهم فأطلق حارثة ومن معه ولم يتربص ريثما يصل اليه المهاجر بجيشه ليأمن غدرهم فلما رجع الاسرى الى أصحابهم حرضوهم على زياد ومن معه واجتمع منهم عسكر ونادوا بمنع الصدقة . ومن هذا يعلم ان كندة آخر من منع الصدقة بعد ردتهم الاولى مع الاسود العنسي وانما ألجأهم الى ما فعلوا الآن ما وقع بينهم وبين زياد من الخلاف

اجتمع الملوك الاربعة منهم ونزلوا المحاجر وهي احماء حموها ونزلت بنو الحرث بن معاوية محاجرها فنزل الاشعث بن قيس محجراً والسمط بن الاسود محجراً وأطبقت بنو معاوية على منع الصدقة الا الشهم الهمام شُرحبيل بن السمط وابنه فانهما قالا لبني معاوية : انه لقبيح بالاحرار التنقل انّ الكرام ليلزمون الشبه فيتكرمون أن ينتقلوا الى أوضح منها مخافة العار فكيف الانتقال من الامر الحسن الجميل الى القبيح ومن الحق الى الباطل ألهم انا لا نمالئ قومنا على ذلك

فلله ما أسمى هذه النفوس وأشرف هذه الشيم وأعلا هذه المدارك وانما ساد المسلمون لا بكثرة وغلبوا على من غلبوا من الأمم لا بقوة عدد وعديد وانما هو برجال مثل هذين لم تضعف فى مواطن الشدة قلوبهم ولم تلفتهم عن الحق رغبة بأهل أو وطن أو رهبة من عدوّ ذي شوكة فاللهم ارزق المسلمين الآن امثال أولئك الرجال وغيّر حالهم الذي انتهوا اليه بأحسن حال انك مجيب السؤال

قال شرحبيل وابنه لقومهما ما قالا ثم انتقلا الى المسلمين ومعهما امرؤ القيس بن حابس وكان من حسن رأيهما وعظيم فضلهما وبعد نظرهما ان أشارا

على زياد ببيات القوم وقالا له انّ اقواماً من السكاسك والسكون قد انضموا اليهم وكذلك شداد من حضرموت فان لم تفعل خشينا ان تتفرّق الناس عنا اليهم . فاستحسن رأيهما وأجابهما الى تبييت القوم فطرقوهم فى محاجرهم وجاؤهم من خمسة أوجه وهم جلوس مكبون على نيرانهم فقتلوا الملوك الاربعة وقد كان لعنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فادركتهم لعنته وفرّ من قومهم من نجا من القتل وعاد زياد بن لبيد بالسبي واجتاز بالاشعث بن قيس فثارفي قومه واستنقذهم وجمع الجموع فكتب زياد الى المهاجر بن أبي أمية يستحثه فلقيه الكتاب فى الطريق فاستخلف على الجند عكرمة بن أبي جهل وتعجل فى سرعان الناس وقدم على زياد وسار الى كندة فالتقوا بمحجر الزبرقان فاقتتلوا فانهزمت كندة وخرجوا هراباً الى ملجأ لهم يسمى النجير وقد رمّوه وأصلحوه وسار المهاجر فنزل عليهم وتحصنت كندة بالنجير فحصرهم المسلمون وقدم عكرمة فاشتدّ الحصار على كندة وتفرقت السرايا في طلبهم فذلوا وخشعوا وخاف من بالنجير من الامراء على نفوسهم فخرج الاشعث مع تسعة نفر فطلبوا من زياد ان يؤمنهم وأهليهم على أن يفتحوا لهم الباب فاجابهم الى ذلك وقال اكتبوا ما شئتم ثم هلموا الكتاب حتى اختمه ففعلوا ونسي الاشعث نفسه فأُخذوا وأُرسل مع السبي الى أبي بكر

لما قدم الاشعث المدينة أنبه أبو بكر وشدّد عليه النكير فلما خشى القتل قال أو تحتسب فيّ فتطلق إسارى وتقيلني عثرتي وتفعل بي مثل ما فعلت بامثالي وترد عليّ زوجتى (وقد كان خطب أم فروة أخت أبي بكر فلما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم أخرها الى ان يقدم الثانية) فان فعلت ذلك تجدني خيراً هل بلادي لدين الله فحقن أبو بكر دمه وردّ عليه أهله وأقام بالمدينة حتى فتح العراق

وكان له شأن ربما يمر معنا ذكره

﴿ كلة في حروب الردة ﴾

انتهت حروب الردة على ما رأيت وثاب العرب الى السكون بعد ان علموا أنّ الاسلام يعلو ولا يعلى عليه وان المسلمين قوم نصروا الله والحق فنصرهم على أعدائهم ومكن لهم السلطان في الارض

لو علم العرب ما أُعد لهم بواسطة الاسلام من سعادة الدنيا والآخرة وكشف لهم الغطاء عن ذلك الملك العظيم الذي سيؤول اليهم والسلطان العميم الذي سيصبح بايديهم لما لعبت الاهواء برؤوسهم ، وأخذت الجاهلية الاولى بمجامع نفوسهم ، ولكن هو الدين دأبه ان يلقى من الناس عناداً ، ومن العقول القاصرة اعراضاً . حتى يتبين لها انه الحق فترضاه ، وانه سبيل الهدى والسعادة فتقصد اليه وتتوخاه ،

تبين معنا من أخبار الردة امور جديرة بالاعتبار حرية بامعان النظر لا نحب ان يفوتنا النظر اليها وبيان ما يستنتج منها وهي

(١) ان المرتدين منهم من توقف عن أداء الزكاة فقط وهم عامة العرب ومنهم من أرتد فعلا وهم بعض القبائل التي قام فيها المتنبئون الاربعة

(٢) ظهور دعوى النبوّة بين العرب حتى ادعاها اربعة رجال وامرأة من عهد الرسالة الى نهاية أيام الردة وهم الاسود العنسي في اليمن وطليحة فى أسد وغطفان ومسيلمة في بنى حنيفة وسجاح في اخوالها من بني بكر ورهطها من بني تميم ولقيط بن زرارة في عمان

(٣) انقسام معظم العرب في حروب الردة فبعضهم للاسلام وبعضهم عليه

(٤) سرعة التوفيق في انهاء حروب الردة

(٥) مصاحبة النصر للمسلمين في كل وقائعهم

فاما الامر الاول فهو يؤيد ما تقدم معنا في مقدمة الكلام على الردة من انها ليست على اطلاقها وانما هو اجتهاد من أبي بكر رضي الله تعالى عنه خالفه فيه كثير من الصحابة ثم لما رأوا أنّ المصلحة تؤيد وقتئذٍ ما ذهب اليه أبو بكر وافقوه على ما ارتآه ومع هذا فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب ورأى ان هذه المصلحة زالت بزوال أسبابها وان بقاء من أسر من المرتدين فى حالة الرق مع انهم لم يكونوا ممن يجوز عليهم الرق عار على العرب محظور في الاسلام قال : انه لقبيح بالعرب ان يملك بعضهم بعضاً وقد وسع الله وفتح الاعاجم فاستشار الصحابة في فداء سبايا العرب ثم وضع الفداء ورد السبايا

واما الامر الثاني وهو فشو دعوى النبوّة بين العرب فهو عندي معجزة من معجزات النبوّة وقد حملها بعضهم على ترقي أفكار العرب قبيل ظهور الاسلام ولا دليل لهم على ذلك وانما هو الغرض يثير بالنفوس ثائرة البغضاء ويستل من بين الجوانح روح الحق فيعمى البصائر ويكشف ما تكنه من ذلك السرائر والا فأي باحث في التاريخ طلاب للحقيقة يقول ان فشو دعوى النبوة يومئذ منشأوه ترقي أفكار العرب مع ان هذه الدعوى انما فشت بعد ظهور الاسلام وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام لا قبيل ظهوره واذا ادعاها واحد أو اثنان قبل البعثة فلان بعض الحكماء منهم كانوا يعلمون ببعثة نبي في العرب بشرت به الكتب السابقة فكانوا يترقبونها لانفسهم واما عامة العرب فقد كانوا كالصم البكم مستغرقين في عبادة الاوثان لا يعرفون معنى الرسالة ولا يسمعون باسم النبوة الا أهل الكتاب منهم كطيء مثلا وهم أول من خذل مسيلمة وكان للاسلام نصيرا وللموحدين ظهيرا

والحقيقة التي يشهد بها التاريخ ويؤيدها العقل ان دعوى النبوة انما ظهرت في العرب بعد الاسلام حسداً للرسول عليه الصلاة والسلام وطلبا للرياسة وظنا من القائمين بهذه الدعوى ان مجرد الاعتصام بالقوة وجمع الجموع يكفي لتأييد دعوى النبوة ثم التذرع بها للقبض على زمام السيادة مجاراة للرسول على زعمهم وحسب العاقل ان يفرق بين النبوة وبين التنبيء بما اقترن بهاتين من الحوادث يومئذ ومنها ان النبي محمدا عليه الصلاة والسلام ظل عشرين سنة يدعو الى الاسلام ومات ولم يجتمع لديه من المقاتلة ما اجتمع في بضعة اشهر لمسيلمة الذي كان جيشه الذي قاتل به خالد بن الوليد أربعين ألفا باتفاق المؤرخين ومع هذا فقد سحق هو ودعواه وجيشه بصدمة واحدة من صدمات الاسلام كما سحق غيره من المتنبئين الذين حشدوا الجيوش وأعدوا العدة لمكافحة الاسلام فصدمهم بقوة رجاله القليلين وأرداهم . ومحاهم من الوجود في أقل من سنة ودعواهم .

وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد ظلت العرب تناصبه العداوة وتنازله ومن تبعه في ساحة القتال مدة رسالته كلها ومع هذا فقد كانت كلمته هي العليا والمسلمون على قلتهم هم الظافرون . فلم هذا ؟

لانه صلى الله عليه وسلم كان مؤيداً بمدد النبوة الصحيحة والفيض الالهي العظيم الذي لا تغني عنه الجيوش الكثيفة ولا يقوم مقامه ترقي الافكار ولو انصف اولئك الناس وانعموا النظر في كثرة المتنبئين في عهد الرسالة وكثرة ما حشدوا وجندوا لتأييد دعواهم ثم انطفاء نارهم وانسحاق جندهم وانمحاق دعوتهم في تلك المدة القليلة واستمرار قوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم نامية مهيبة ودعوته قائمة منتشرة واتباعه في ازدياد حتى بلغوا الى هذا العهد

سدس البشر وضرب الاسلام بجرانه في معظم انحاء الارض لعدوا هذا كله معجزة من معجزات النبوة أراد الله بيانها للناس ليؤيد بها رسالة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام ويظهر الباطل في جانب الحق ليميز بين الاثنين . ويعلم المعاند أن محمداً نبيّ الله حقاً بلامين. ولكن ما الحيلة (فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)

وأما الامر الثالث وهو انقسام العرب في حروب الردة بين منتصر للاسلام وقائم عليه فهو من لطف الله تعالى الذي أراد به تأييد جانب المسلمين. وتعجيل الفتح المبين. وفيه دليل على ان الناس انما يصلحون بالرؤساء ويفسدون كذلك لانهم لرؤسائهم تبع ولزعماء السيطرة عليهم مقلدون . فان كلمة من عديّ بن حاتم الطائي مثلا كفت لانحياز انجاد طيّ وفرسانها لجانب المسلمين وقتالهم في صفوف الموحدين فان عدياً لما كان شهما يأبى النقيصة وقد سبق منه الايمان بدين الله القويم . وتوكيد العهد على مظاهرة المسلمين . بادر الى قومه لما انحازوا الى طليحة الأسدي ونصحهم على الوفاد بالعهد . وعدم الخروج عن الايمان فسمعوا له واطاعوا . ولما اشار به انصاعوا . حتى قيل يومئذ (كان عديّ خير مولود فى طيّ واعظمه بركة عليهم) وذلك لتخلقهم بكريم اخلاقه . وتمسكهم بالاسلام اقتداء به . واتباعاً لنصيحته.

وكذلك ماكان من صفوان بن صفوان والزبرقان بن بدر فى قومهما من تميم حتى اقتدوا بهما وأطاعوا اشارتهما فقاموا في وجه من ارتد من احياء تميم. وانحازوا مع ذينك الشهمين الى المسلمين.

وأما الامر الرابع . وهو سرعة التوفيق بانهاء حروب الردة . والامر الخامس وهو مصاحبة النصر للمسلمين . فانهما ولا ريب من نتائج حسن

اليقين عند المجاهدين وتجردهم لنصرة الاسلام تجرد من لا يرى الحياة الا بالموت ويرجو من ثواب الشهادة في اعلاء كلمة المسلمين، أكثر مما يرجو من متاع الدنيا ومكافئة المكافئين ، وحق لرجال باعوا نفوسهم في سبيل الدين واعزازجانب اخوانهم الموحدين ان تدك امامهم شوامخ الجبال ، لا صفوف الرجال ويستخذى لهم الملوك الكبار ، لا سكان القفار

ولا ينكر ما لأبي بكر رضي الله تعالى عنه من حسن الاختيار بمن ولاهم حروب الردة من القواد العظام الذين أمعنوا بجيوش المسلمين القليلة في أحشاء بلاد العرب وجابوا انحاءها القاصية حتى بلغوا مشارف الشام والجزيرة شمالا وشطوط البحر الهندي جنوباً والعراق العربي وخليج فارس شرقا وشطوط البحر الاحمر ومضيق باب المندب غرباً ولم تكن غيبتهم الا كما يغيب المرتاد للناجع ثم انقلبوا ظافرين وقد عمموا في جزيرة العرب دعوة القرآن ، وجمعوا سكانها على كلمة الايمان ،

وقد نتج عن هذا كله ان وقعت هيبة الاسلام في قلوب العرب وايقنوا انه الدين الحق الذي لا يفلح مناوئه ، ولا ينجح شانئه ، فاقبلوا بأجمعهم اليه ، وجمعوا كلمتهم المتفرقة عليه ،

باب

فتوحات أبي بكر

(تمهيد للفتح الاسلامي)

رأي أبو بكر رضي الله تعالى عنه أن لا يدع لبعض المنافقين الذين لا

يروق لهم سمو شأن الاسلام وقتاً لدس سموم الفتنة في جسم تلك الأمة العظيمة التي جمعتها كلمة الاسلام وان يشغلهم مع الجيوش الاسلامية بالفسح تعميا للدعوة الاسلامية وبثاً لروح العدل والحرية بين الأمم فما هو الا آن وبلغ بالعرب هذا الباب حتى انكفأوا على الأمم التي مزقت احشاءها سيوف الاهواء والاوهام، وقضي على مجدها القديم ظلم ارباب السيطرة على النفوس والاجسام. فلم يلبث أن وافاها المسلمون يحملون لفريق أهل الكتاب منها (قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً) ولفريق الصابئة ومن على نحلتهم من المشركين (الاسلام أو الجزية أو السيف)(١) حتى اشرأبت لعدل سلطانهم اعناق الناس . ودانت لدينهم الشعوب . وخضعت لسطوتهم الأمم فعمروا المسالك ، وشادوا الممالك ، ومصروا الامصار وكانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون القسطاس ويأخذون من أنفسهم للمظلوم حتى يرضى ، كما يأخذون على يد الظالم

---

(١) قاعدة الجهاد وبث الدعوة في الاسلام هي ان لا يقبل من مشركي العرب لا الاسلام وأما اهل الكتاب فالاسلام وان أبوا فالجزية وهي مايستعان به على اصلاح شأن الأمة وان أبوا فالسيف أي الحرب وهي منتهى درجات الدعوة وانما كان الحرب مصاحبة للدعوة لحمايتها كما يفعل الآن وقبل الآن دول الافرنج في حماية المبشرين بالاساطيل والجند والعدة والعديد

وقد اختلف في المشركين من غير العرب أي المجوس هل يحاربون على الاسلام أو الجزية أم على الاسلام فقط والمشهور ان النبي صلى الله عليه وسلم قبل من المجوس من أهل هجر الجزية وأما العرب فلن يقبل منهم الا الاسلام وبهم نزل كثير من آيات الجهاد ومن ثم تعلم خطأ القائلين بقيام الاسلام بين الامم بالاكراه وهو لم يقم الا بالدعوة كما فصلنا ذلك في رسالتنا المسماة كيفية انتشار الاديان تفصيلا شافياً

حتى يحتذى ،

اما والله لن تبلغ أمة بالظلم والقوة، وكثرة العديد والعدة، ما بلغه المسلمون في ربع قرن من استخضاع الأمم بالعدل والايغال في احشاء الممالك بدعوة القرآن فليمسك المتخرصون ، ولينصف الغربيون ، فان سلطان الظلم اذا أسرع بسيفه الى الرقاب، فلا سلطة له على النفوس، وانما تملك النفوس، بالعدل، وتلتف الناس على القائم بالقسطاس، السائس بالرحمة، الباسط بساط الحرية والأمن، ومن لهذا غير أولئك الفاتحين الاخيار ، وأنى يجاريهم ساسة الممالك في هذا المضمار ، فجزاهم الله خير جزاء على ما تركوا من حسن الاثر للمسلمين، وبئس من غلبتهم الشهوات بعد فغيروا وبدلوا فكانوا من الخاسرين، وقذفوا بالأمة من حالق مجدها الى وهدة الذل المهين .

أجل ان أكثر ما فتح أولئك الفاتحون البواسل بالعدل لا بالسيف ، وبنصفة المغلوبين لهم لا بالحيف . ولما ثقلت على الأمم القديمة وطأة الاستعباد ، واستحكمت نفوس ساستهم شكيمة الظلم والاستبداد ، تلقوا المسلمين في الظاهر بالحرب ، وفي الباطن بالمسرة والحب ، ولا يسع المغلوب على أمره من مستبد قاهر الا أن يساق بعصاه كما سيق المحاربون لاهل الاسلام وهم مكرهون ، ولا دالة دولتهم من العرب متمنون، وأي شاهد على هذا أعدل من التاريخ الذي ينطق عليهم بالحق ولا يقول الا الصدق

روى البلاذري في فتوح البلدان انه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ردوا على اهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فانتم على أمركم فقال أهل حمص لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم

ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود وقالوا والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا ان نغلب ونجهد فاغلقوا الابواب وحرسوها . وكذلك فعل اهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود وقالوا ان ظهر الروم واتباعهم على المسلمين صرنا الى ما كنا عليه والا فانا على أمرنا ما بقى للمسلمين عدد

واحزناه على ذلك العدل . قوم نشأوا فى مهد دولتهم ونشأت فى أحضانهم . ودانوا بدينها ودانت بدينهم. يغلقون فى وجهها الابواب. ويظاهرون عليها العدوّ ويقسمون على الوفاء للمسلمين ما بقى منهم عدد يقاوم دولتهم . وينكس أعلام سلطانهم . وهم ليسوا على دينهم . ولا من جنسهم . ولا من أهل لغتهم . هل مرقوا من الدين . وخانوا الدولة . وباعوا الوطن . وماتت فيهم طواطف العزّة .

كلاّ وانما هو العدل العدل . العدل الذى جمع بين الامير والمأمور والخادم والمخدوم والكبير والصغير فصيرهم فى شرعة الحق سواء وضمهم تحت راية الحرية والاخاء

شيء شاهده أولئك القوم من العرب وشهدوه . وذاقوا طعمه بعد ان لم يذوقوه . فحبّب اليهم دولة المسلمين بعد اذ أصبحوا من حقيقتها على علم . وقالوا لهم لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم

اللهم انك اذا حببّت بسلطان الارض قوما فقد أذنت له ولهم بالسعادة، وأنزلت عليهم من سماء رحمتك روح السكينة ، وأفرغت عليهم لباس الأمن، وأردت له سمة السلطان ؛ ومكنت له فى الارض كما مكنت لانصار دينك يومئذ سلطانهم،وجعلت أعداءهم أعوانهم ، ومن استمسك بعروة كتابك الوثقى فان رحمتك قريب منه، وأنى يشتبه بأولئك غيرهم وأولئك قوم رضى الله عنهم

ورضوا عنه ،

من يصدق ان تلك القبائل البدوية التي نشأت على حب العصبية والتهالك على قتال بعضها بعضا والبعد عن معنى سياسة الأمم وحكم الشعوب ، والنفرة من مظاهر الحضارة ودواعي المدنية ، تنتهى اليها فى بضع سنين سياسة فارس والروم ورياسة آسيا وأفريقيا لولم ينزل اليها القرآن،وتستنير بشريعة سيدولدعدنان.

لله ما أعظم فضل القرآن وما أسمى مقاصد الاسلام . بالامس كانت هذه القبائل مشهرة سيوفها على المسلمين والسمط بن الاسود الكندى والاشعث بن قيس فى محاجرها بقومهما من كندة يضربون بالسيوف فى وجوه المسلمين واليوم أحدهما الاشعث فى العراق يخوض بقومه غمرات الموت ويقتحم صفوف الفرس ، وينادى يا للاسلام ، والثاني في حمص يقسم منازلها على المسلمين ، وأهلها من ورائه يغلقون فى وجه دوابهم الابواب ، ويدفعون عنه جند الروم انّ هذا لمن العجب العجاب ،

أصبح العرب بعد تلك الهمجية المعروفة من قادة السياسة والحرب وأفضل من ساس الأمم فبات المغلوبون لهم ، الخاضعون لسلطانهم من لروم أحرض الناس على حكمهم، وأرغبهم في شرعهم ، أفليس فى هذا كله ما يكف عن الاسلام ألسنة المخرّصين ؛ ويشهد بان الفتح الاسلامى كان خيراً وبركة على الناس أجمعين

لو قدر المسلمون قدر هذه النعمة وحافظوا على سنن السلف من الصحابة ولم يحد أمراؤهم عن صراط القرآن، ويشاق بعضهم بعضاً بسيف الخذلان ، خدمة للاهواء وانقياداً لغلبة الشهوات لما ازداد المسلمون الا مجداً ورقياً والاسلام الا انتشاراً وتعميما ولكن هي الاخلاق اذا فسد جوهرها والاهواء اذا

انفجرت ينابيعها صارت طوفانا اذا اندفع على البشر ، لا يبقى ولا يذر ، والنعم لا تدوم الاّ بالشكر ،ولا تزول الاّ بالكفران ، وحسبنا من هـذا قوله تعالى في القرآن (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

﴿ فتح العراق ﴾

أول من حرك في نفس أبي بكر رضي الله تعالى عنـه أمر العراق هو البطل الجليل المثنى بن حارثة بن ضمضم الشيباني من بكر بن وائل وهو ممن لم يتابع بكراً على ردتها وبقي وقومه على الاسـلام وكان يغير على سواد العراق على رجال من قومه فبلغ أبو بكر الصديق خبره فسأل عنـه فقال له قيس بن عاصم بن سنان المنقري . هذا رجل غـير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد هذا المثنى بن حارثة الشيباني

والظاهر ان المثني بمجاورته لبلاد فارس وتوالي غارته على اطراف ملكهم من جهة العراق خبر حالهم ووقف على أمورهم وعلم اضطراب حبـل دولتهم فقدم على أبي بكر ورغب اليه ان يستعمله على من أسلم من قومه ليغزو بهم أطراف فارس وسهل لديه أمرهم ورغبه بغزوهم فكتب له أبو بكر في ذلك عهداً وسار الى بلاده ثم ان أبا بكر رأى ان المثني وحـده لا يقوم بالمهمة التي خالجت فؤآد أبي بكر وهي نشر راية الاسلام على ارجاء العراق ثم فارس فاستدعى اليه خالد بن الوليد المخزومي من اليمامة في المحرم من سنة اثنتى عشرة للهجرة وأمره بالمسـير الى العراق وأن يبدأه من أسفله وكتب الى عياض بن غنم الفاتح الشهير الذي كان على يده فتح الجزيرة وقسم من ارمينيا بعدُ وأمره ان يأتي العراق من أعلاه ويسير حتى يلقى خالداً وأوصى أبو بكر خالداً وعياضا أن لا يضرا بفلاحي العراق وأهل السواد حرصاً منه رضي الله تعالى عنه على

منابع الثروة وعلماً بان العمران أمر لا تقوم بدونه الدولة، والفلاحة كما لا يخفى مصدر حياة الناس وتقدمها أساس عمران الممالك وانما هي قائمة بالفلاح فهو اولى الناس برعاية السلطان وحراسته من أذى الجند فما أبعد هذه الهمة وما أسمى هذا النظر. يبعث بالجند ليثلوا عرش الملوك ويستخضعوا جبابرة الاقوام ويدكوا صروح أولي السيطرة الظالمين ثم يبث فيهم روح الرأفة بالفلاحين، والمحافظة على المستضعفين، ليذرع في نفوسهم احترام حقوق اهل الفلاح الذين هم مصدر قوى الدولة ويرشدهم الى مبلغ عناية أرباب السلطان بالطبقة العاملة منهم ليحفظوا عليهم مصدر قوتهم ومنبت قوتهم وليعلموا أن أولى الناس برعاية الامير عامل يعمل بارضه ويشتغل لقومه ولنفسه فيكونوا من العاملين

وأوصاهما أيضاً ان لا يغزون معهما أحد ممن ارتد وذلك لضعف ثقته رضي الله عنه بأهل الردة بعد ما ظهر منهم ما ظهر من حرب المسلمين ولعله خشي من أن يكون في قلوب بعضهم ضغن على المسلمين فيبثون فيهم روح الفتنة ويفسدون عليهم أمر الفتح وهو احتياط وحذر لا يعجب من صدورهما من مثل أبي بكر لبعد نظره في العواقب وتأنيه في الامور ومع هذا فان عمر رضي الله تعالى عنه لما رأى حاجة المسلمين الى الجند أيام خلافته استنفر العرب للجهاد وأذن لعامتهم بالانضمام الى جيوش الفتح وكان لزعماء الردة منهم كطلحة الاسدي وعمرو بن معديكرب والسمط بن الاسود الكندى والاشعث بن قيس وأمثالهم البلاء الحسن في فتوح الشام والعراق والاخلاص العظيم في اعلاء كلمة الاسلام ومعظمهم استشهد في أيام الفتوح وانما قويت ثقة عمر رضي الله عنه بالعرب لاتساع الفتوح وامتداد سلطان الاسلام ولأن في

توالى الجهاد شاغلا لاهل الفتنة عن الفتنة .ولعلّ ما أصاب المسلمين من بلاء التشيّع والتحزب والانقسام في خلافة عثمان رضي الله عنه وما بعده لمّا استقر أمر المسلمين في فارس والروم وأخلدوا الى الراحة من عناء الفتح كان لا يخلو من أصابع كثير من أولئك الذين حذرهم أبو بكر والله بالحقيقة عليم

لما سار خالد الى العراق كان معه من الجند عشرة آلاف واستقبله المثنى ابن حارثة بثمانية آلاف وبعد مسيره أمدّه أبو بكر بالقعقاع بن عمرو بطل المسلمين المغوار .فقيل له أتمدّه برجل واحد . فقال لا يهزم جيش فيهم مثل هذا . وكذلك أمدّ عياض بن غنم بعبد يغوث الحميرى وكتب الى المثنىّ بن حارثة يأمره بالسمع والطاعة لخالد وكان مذعور بن عدىّ العجلىّ قد كتب الى أبي بكر يعلمه حاله وحال قومه من الاسلام والطاعة وحب الجهاد ويستأذنه بقتال الفرس فأمره ان ينضم الى خالد . وكذلك كان سويد بن قطبة الذهلى من بكر بن وائل يتربص في البصرة مجئ خالد ليكون وقومه معه على قتال الفرس . فحيّا الله هؤلاء الرجال الكرام . ورضي عن تلك النفوس الطاهرة . التي بيعت في سبيل الاسلام وأخلصت النية لهذا الدين الذي هيأ الله لاهله أسباب النصر لما نصروه . وأعزّهم لما أعزوه .

وقد اختلف المؤرخون فى أول بلد قصده خالد فقال بعضهم انه سار الى الأبله [١] وقال الدينوري في الاخبار الطوال انه سار الى الحيرة وان فتح الأبلة كان في عهد عمر بن الخطاب على يد عتبة بن غزوان. ولعلّها انتقضت فارسل

---

١ قال الدينورى في الاخبار الطوال « الموجود منه نسخة في المكتبةالخديوية طبع ليدن » لم يكن موضع البصرة يومئذ الا الخريبة وكانت الابلة مرفى سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين اه

عمر عتبة لاخضاع أهلها اذ المشهور ان خالداً بلغ الحفير والكواظم عند مصب الفرات ودجلة في خليج العجم ثم عاد الى الأُبلّة ففتحها عنوة وخلف عليها سويد ابن قطبة وقال له. قد عركنا هذه الاعاجم بناحيتك عركة اذلتهم لك. ثم أتى الخريبة وكانت مكان البصرة الآن وهي منازل خربة بها مسالح اكسرى تمنع العرب من العيث فطردهم منها واستخلف فيها عامر بن قين من بني سعد بن بكر من بنى هوزان ثم تتبع شط الفرات فجاء بانقيا وبار وسماو آليس فصالحه أهلها على مال معلوم وعلى ان يكون أهل آليس عيونا له ثم سار الى الحيرة فناوش أهلها الحرب فخرج اليه أياس بن قبيصة الطائي من أشراف الحيرة وكانوا من أهل الكتاب فدعاهم (الى الاسلام أو الجزية أو الحرب) فقال له اياس ما النا بحربك من حاجة بل نقيم على ديننا ونعطي الجزية فصالحهم على الجزية واختلفوا فى مقدارها فقال بعضهم انها كانت تسعين الفا وقال بعضهم مائة الف وروى البلاذري ان أهل الحيرة كانوا ستة آلاف رجل فالزم كل رجل منهم أربعة عشر درهما وزن خمسة فبلغ ذلك أربعة وثمانين ألفا تكون ستين وزن سبعة. وروى الطبرى انها كانت مائة وتسعين الفا ويؤيده ماجاء في كتاب عهد خالد لاهل الحيرة على ماسترى

وأهدى أهل الحيرة هدايا الى خالد على عادتهم مع الفرس فبعث بهامع خبر الفتح وما اجتمع لديه من الفيء الى أبي بكر فقبل الهدايا وعدها لاهل الحيرة من الجزية تعففا عما لم يأذن به الشرع وقطعا لدابر العادات الاعجمية التي كان يُحتال بها على سلب أموال الناس

هذا أول فتح بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فتحه أبو بكر خارج جزيرة العرب وقد رأيت انه لم ترق فيه نقطة من الدم في غير الابلّه وفيه دليل على ارتياح اهل البلاد الى حكم المسلمين وملهم من ظلم الفرس وتوقعهم

لاضطراب حبل دولتهم وزوال ملكهم وانما قوبل خالد بعد هذا بالحرب لدماء أصابها من النمر وتغلب واياد وغيرهم من نصارى العرب الذين امتنعوا عليه ثم استجاشوا جيوش الفرس طلباً للثار

ثم ان خالداً بعد ان استخضع أهل الحيرة وقضى على دولة المناذرة التي كانت تحكم العراق من قبل الاكاسرة وقاعدتها الحيرة أخذ يتمم فتح العراق العربي فسار مصعدا جنوبا فافتتح الانبار الواقعة شرقي الفرات وبادقلى وعين النمر وقطربل الواقعة شرقي دجلة ولما وصل الى دومة الجندل التقى بعياض ابن غنم فجاءها عياض من أعلاها وخالد من أسفلها فافتتاحها عنوة . وكانت آخر حروب خالد في الفراض التي هي آخر تخوم العراق مما يلي الشام والجزيرة وكان كلما فتح فتحا وتوفرت لديه الغنائم يبعث بالخمس الى أبي بكر رضي الله تعالى عنه مع خبر الفتح حتى قال فيه أبو بكر (عجزت النساء ان يلدن مثل خالد)

وسيأتي معنا بعض الكلام على حروب خالد في العراق في سيرته ونورد كتبه التي كتبها الى الفرس بعد فتح العراق وجغرافية البلاد التي افتتحها ان شاء الله

انصرف خالد بعد وقعة الفراض الى الشام واستخلف المثنىّ بن حارثة الشيباني على جند العراق فاقام في الحيرة يرتب المقاتلة ويذكي العيون وكان ملك فارس يومئذ شهريران بن ازدشير فظن ان غياب خالد ربما يوهن جانب المسلمين فجهز جيشا عظيما بقيادة قائد يسمى هرمز فلاقاه المثني في بابل شرقي الفرات والتحمت هناك الحرب بين المسلمين والفرس وكانت حربا شديدة انجلت عن هزيمة جنود الفرس ومات عقبها شهريران ملك فارس فساد الاضطراب

في المملكة الى ما كان عليه واختلف الفرس فيمن يولونه أمر الملك اختلافا يؤذون بادالة دولتهم من المسلمين وينذر بالانحلال العاجل الذي يصيب الممالك عند بلوغها منتهى درجات الترف والنعيم واشتغالها بالسفاسف والاوهام دون الجد والحزم (واذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا)

باب

فتوح الشام

(تمهيد)

لما انتهى فتح العراق العربي وجاس المسلمون خلال ديار الفرس واستقر لهم في تخوم فارس الملك والسلطان واتخذوا بها الثغور يدّخرون بها معدات القوة للاجهاز على ممالك الفرس ورأى أبو بكر ان الله سبحانه وتعالى منجز وعده الذي وعد المؤمنين (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض) انصرفت همته الى الشام التي هي مركز التجارة بين الشرق والغرب ومدخر الخيرات التي أعدها الله للمسلمين

كانت الشام يومئذ تابعة لمملكة الروم تبعية أشبه بالاسمية وكان سلطان الروم هناك في تقلص. ونفوذهم في اضمحلال. ومعظم ولاية الشام في أيدي العرب واليهم ترجع الامارة وعلى الملوك من بني غسان حراسة البلاد. ولم يكن لقيصر في باطن الامر على اهل الشام سوى الاتاوة. والنفوذ والسلطان انما كان للعرب الذين كانوا لا يميلون الى الروم ويودون اجلاءهم الى حيث نبت

بهم بقاع الغرب لما كانوا عليه من الظلم الذي يصاحب غالباً أواخر الدول القاتحة الغريبة عن البلاد المخالفة لها في الجنس والعادة فلهذا ولأن الشام فى الحقيقة أشبه بجزء طبيعى من جزيرة العرب كانت الاسباب متوفرة لضم هذه البلاد الى سلطان المسلمين وطرد ذلك الفاتح الغريب العابث بنظام العدل المتعدي على حقوق الملك الطبيعى والاستقرار الثابت للعرب . يضاف الى هذا ان انضواء الامة العربية الى لواء الاسلام واجتماعها على كلمة الايمان أمر لا مندوحة عنه يومئذ بحكم الوحدة في الجنس واللغة التي تقضي بوحدة الدين والسلطان

وأنت ترى ان الشام بهذه المثابة كحق طبيعى للمسلمين وهى لما حكمت بالاسلام انما حكمت بالعرب أرباب هذا الحق وأصحاب البلاد لحكمين حكم الجوار واللغة وان لم تكن عامة وحكم الجنسية الشرقية والشرقي أولى بالشرق .

اذن فما أسخف عقول طائفة من الغربيين يدّعون حقاً قديماً فى البلاد يسمونه المسئلة الشرقية ولم يكن لاسلافهم فى الشرق الا ما يكون لكل فاتح غريب من السيادة الى حين . ثم يتقلص ظله . وينكمش الى وطنه . كما انكمش الرومان الى حيث نبت بهم بقاعهم وتقلص عن المشرق ظلهم (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)

وحبذا لو حاكمنا الغربيون بهذه الدعوى الى مجلس العدل والمناقشة ، وولجوا بنا باب الانصاف في المناضلة ، اذن والله لأدلينا بالحجة ، وكنّا فى جانب الحق ، وكانوا في جانب الباطل ، ولكنها القوّة تغلب كل حق وان كانت في نفسها حجة للمغلوب لا يستظهر بها الا اذا عادل خصمه واستعلى

على عدوّه وأنّى لنا هذا معاشر المسلمين الآن وليس فينا كأبي بكر واخوانه ومعاوية والخلفاء من بني عمه والمنصور واحفاده وعبد الرحمن الداخل واشبال اشباله وصلاح الدين وعزيمته والسلطان سليمان وأضرابه من آل عثمان الذين قضوا بعزائمهم على بقايا دولة الرومان في الشرق

ذكرى تمزق الافئدة والقلوب وحال من ضعف البصائر وغلبة شهوات النفوس قد انتهينا اليه أفقدانا كل صبر ، وسلكا بعقول النابغين في الأمة من مذاهب الحيرة كل مذهب ، ودون اهتدائهم الى التخلص من شرك الحيرة وخروجهم بالأمة من وهدة هذا الضعف أسوار من شهوات الامراء وائتلاف الامة لحكم الاستبداد الذي أوهن عقولها ، وذهب بآثار الشمم من نفوسها ، لا تزول الا بخلق جديد في الاسلام فقد استقلاله ، وقضى حب الذات على دوله ، فلم يبق له أمل بغير نفسه ، واعتماد الأمة على جده ، بسبب هبة العامل أيقظته الصيحة من كل مكان وأخذت بناصيته يد العدو وفي قول علي بن أبي طالب ما يشير الى هذا (الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا) (١)

هذا الحق الذي يعظم وقعه في نفوس العقلاء . ويثقل سماعه على البسطاء . نقوله بحكم المشاهدة لما يحيط بنا من الوسط . والتحقق من حالة المسلمين وحكوماتهم . والنظر الى سنن الله في خلقه التي أبانها لنا القرآن وأيدها تاريخ الانسان وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون - ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون - ياداود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق - واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا - ان تنصروا الله ينصركم و يثبت

١ وفي الطبعة الاولى قلنا انه حديث وهو خطأ لزم اصلاحه هنا

أقدامكم - وتلك الايام نداولها بين الناس - الى غير ذلك من آيات البيان التي تثبت ان لله في خلقه سنناً لا تتخلف وللمعرضين عنها من عباده جزاء لا مهرب منه ومع هذا فانا نرجو أن تخلف ظننا الاقدار ويخلق الله لهذا الأمة ما لم يكن في الحسبان فتعود على بدئها وتسترد بقوة العلم والعمل ذاهب مجدها وليس على المجد اذا عزم أن يتوقف . وكل سالك في طريق الى نهايتها يصير . وانما نصر الله المسلمين فى عهد أبي بكر ومن بعده بجدهم وسؤددهم على الامم بالغلبة على شهواتهم والاستظهار بقوة يقينهم والله ولي الصالحين

﴿ استدراك ﴾

ربما يظن ظان مما قدمناه في هذا التمهيد انا بالغنا في القول بسيادة العرب في سورية إبان الفتح وانهم كانوا حماة البلاد وأصحاب السلطة العظمى على قسم عظيم منها والحال ان ما ذكرناه من ذلك في هذه المقدمة انما هي حقائق تاريخية أوردناها على وجه الاجمال لهذا ودفعاً لخطأ الظن أو تهمة التشيع للعرب أحببنا أن نستدرك ما فات ببيان تاريخي لما تقدم فنقول

ان قسما عظيما من سورية كان مأهولا يومئذ بالعرب فكان سكان القسم الجنوبي منها ومن حوران وما يليها من البلاد الواقعة في الجنوب الغربي وهي الكرك ومعان الى العقبة قرب البحر الاحمر كانت مأهولة بالعرب من غسان ولخم وجذام وكلب وقضاعة وغيرهم وكانت عاصمة هذا القسم بصرى المدينة الشهيرة في حوران التي لم تزل آثار العظمة بادية على بقاياها الى الآن وكانت حاضرة الملوك من بني غسان

وكان قسم عظيم من الجزء الشرقي والشمالي الشرقي الممتد من غوطة

دمشق الى مدينة تدمر وما بعدها الى شط الفرات مأهولاً بالعرب أيضاً من بني غسان والنمر وبهراء وتغلب وغيرهم وعاصمة هذا القسم مدينة دمشق

فاما القسم الجنوبي وكونه كان مأهولاً بالعرب وفيه نشأت دولة بني غسان الشهيرة فمشهور لا حاجة فيه الى البيان

وأما القسم الآخر وكونه كان مأهولا بالعرب فالدليل عليه مارواه الطبرى وغيره من المؤرخين عن الفتح الذي فتحه خالد والبلاد التي مرّ عليها أثناء مجيئه من العراق الى الشام لنجدة المسلمين ومنه يستنتج انّ كل البلاد التي مرّ عليها يومئذ منذ أشرف على وادى الفرات حتى انتهى الى دمشق بلاد مأهولة بالعرب واليك البيان

لما قصد خالد بن الوليد الشام وقطع اليها المفازة أشرف منها على حدود سورية الشرقية في وادى الفرات وهو المعروف الآن ببلاد الزور وعاصمته الدير المعروف الآن بدير الشعّار وكانت كلها مساكن للعرب في بهراء والنمر وتغلب وغيرهم لم تزل الى الآن كذلك فاتى أرَكَ وهي واقعة بين تدمر والدير ومنها سار الى تدمر وهي على حدود البادية الشرقية وسار منها الى القريتين (ولم تزل معروفة الى الآن بهذا الاسم) ومنها سار الى دمشق (عن طريق القلمون الاسفل وهو الجزء الشرقي من العمالة المعروفة الآن بجبل قلمون ويسمون هذا القسم القلمون التحتي وهو طريق القوافل لهذا العهد من الشام الى العراق)فأتى خالد فى طريقه على حوارين وقُصَم وكانت آخر ما فتحه من البلاد الواقعة في طريقه من شمال دمشق فقاتله اهلها وكانوا من بني مشجعة من قضاعة فظفر بهم ثم سارعنهم الى ثنية العقاب (التى تشرف على المرج المعروف الآن بمرج عذراء الواقع في الجهة الشمالية الشرقية من دمشق) ومنها انحدر

الى مرج راهط (وهو المرج المتصل بمرج عذراء ممتداً الى جهة الجنوب)
فأغار على بني غسان في يوم فصحهم فقتل وغنم وبعث بالاخماس الى أبي بكر
هذا ما أثبته الطبري بشأن البلاد التي مرّ عليها خالد وفتحها أثناء مجيئه
من العراق الى الشام ومنه علمتَ ان آخر ما افتتحه خالد من جهة الشمال الشرقي
عن دمشق (قُصَم) وأهلها من العرب من بني مَشجَعة وهو يدل على ان
القلمون الاسفل وما يليه شرقا الى شطوط الفرات كان مأهولا بالعرب من
النمر وتغلب واياد وبهراء وغيرهم (١)

وكذلك القسم الواقع شرقي دمشق وهو مرج راهط قد كان مأهولاً
ببني غسان . والظاهر ان دمشق نفسها كانت عربية يومئذ بدليل انها كانت
تحت الحرث الغساني أحد ملوك بني غسان في عهد الفتح الاسلامي فهي اذن
كانت عاصمة ذلك القسم العظيم الممتد منها الى الشمال والشرق حتى البادية
والفرات ومن الجنوب والجنوب الغربي حتى الحجاز والعقبة وكله كان
مأهولاً بالعرب

اذا تقرر هذا علمت ان لا مبالغة فيما قلناه من أن سورية كانت أشبه
بولاية عربية كان النفوذ والسلطان فيها للعرب واليهم ترجع حماية البلاد
وحراستها ولم يكن للروم فيها الا الاسم اللهم الا ما كان منها واقعاً في الجهة

---

(١) هذا الاستنتاج يصح فيما لو صح ما ذكره الطبري في تاريخه من أن خالد بن الوليد أتى القريتين ثم حوارين وبعدها قصم ومنها أتى ثنية العقاب فجعل قصم آخر الفتح الى جهة دمشق . وبعده كانت غارته على غسان في مرج راهط لكن ذكر ياقوت في معجمه أن قصم موضع بالبادية قرب الشام فاذا صح هذا ضعف استدلالنا على ان قلمون الاسفل كان مأهولاً بالعرب

الغربية والشمالية كفلسطين والاردن وحلب وانطاكية وما يليها فربما كانت سلطتهم عليها أظهر وكلمتهم أنفذ والله أعلم

﴿ بعث البعوث الى الشام ﴾

كان بَعْثُ أبي بكر البعوث الى الشام في أوائل سنة ثلاث عشرة بعد عوده من الحج وكان أول لواء عقده الى الشام لواء خالد بن سعيد بن العاص وقال ابن الاثير وتابعه عليه كثير من المؤرخين انه عزله قبل أن يسير بايعاز عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك لما في نفسه عليه من تربصه ببيعة أبي بكر كما تقدم الكلام عليه وأمره أن يكون بتيماء رِدأً للمسلمين وأن لا يفارقها وان يدعو من حوله من العرب وان لا يقاتل الا من قاتله فاجتمع اليه جموع كثيرة واتصل خبره بالروم فضربوا البعث على العرب الضاحية بالشام ثم جاءه ماهان بالجيوش فقرقهم ثم جمع له فقاتله فهزمه فكتب الى أبي بكر بذلك فاهتم لأمر الشام واستنفر العرب وجهز البعوث الى آخر ما ذكروه من خبره

هذا ما ذكره بن الاثير وغيره وروى البلاذرى في فتوح البلدان عن أبي مخنف قال

ولما عقد أبو بكر لخالد بن سعيد كره عمر ذلك فكلم أبا بكر في عزله وقال انه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب فعزله أبو بكر ووجه أبا أروى الدوسى لاخذ لوائه فلقيه بذي المروة فأخذ اللواء منه وورد به على أبي بكر رضي الله عنه فدفعه أبو بكر الى يزيد بن أبي سفيان فسار به معاوية أخوه يحمله بين يديه ويقال بل سلم اليه اللواء بذي المروة فمضى على جيش خالد وسار خالد بن سعيد محتسباً في جيش شُرَحْبيل اه

والذي يستنتج من هذه الرواية ان أبا بكر عقد لخالد بن سعيد ليكون ردأً للمسلمين لا ليغزو مع الامراء ثم بعد مسيره كلمه بشأنه عمر فعزله واستعاد لواءه فدفعه الى يزيد وسيره على أثر مسير الامراء. وروى الطبري في تاريخه عن سيف نحو هذه الرواية وروى ايضاً من طريق آخر ان أبا بكر لما عقد الالوية للامراء عقد لخالد بن سعيد فيمن عقد ولما كلمه بشأن عزله عمر أطاعه أبو بكر في بعض أمره وعصاه في بعض وأمر خالداً أن ينزل بتيماء وان لا يبرحها وان يدعو من حوله الى الاسلام ففعل واجتمع اليه جموع كثيرة فلما بلغ الروم ذلك جمعوا له فكتب الى أبي بكر بذلك فكتب له أن اقدم ولا تحجم فسار اليهم خالد فتفرقوا فكتب الى أبي بكر بذلك فكتب اليه أبو بكر . أقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك. فسار فيمن كان معه فلقيه باهان بجيوش الروم فقاتله خالد فظفر به وهزم جنده وكتب الى أبي بكر يستمده فاهتم أبو بكر لامر الشام وجهز البعوث فتعجل خالد بالحرب قبل وصول الامراء فنكبه الروم فعاد الى المدينة مهزوماً فغضب أبو بكر عليه ثم استأذن أبا بكر وذهب متطوعاً في جيوش الامراء . وهذه الرواية توافق ما رواه ابن الاثير وتخالف رواية البلاذري وفي كلا الحالين فان يزيد بن أبي سفيان صار أميراً على جيش خالد بن سعيد كما يتضح ذلك من وصية أبي بكر له

لما استنفر أبو بكر المسلمين من أطراف البلاد العربية للجهاد أخذوا يفدون عليه من كل فج ويعسكرون بالجرف قرب المدينة ولما تكامل جمعهم وذلك في مستهل صفر سنة ثلاث عشرة عقد الالوية فعقد لواء لعمرو بن العاص وكان قد استدعاه من ولايته على صدقات سعد هزيم من قضاعة ووجهه الى فلسطين . وعقد لواء لشُرَحْبيل بن حسنة وكان قد وفد اليه من

العراق ووجهه الى الاردن . وعقد ليزيد بن أبي سفيان على جمهور من انتدب اليه فيهم سهيل بن عمرو وأشباهه من وجوه مكة وأشراف قريش ووجهه الى البلقاء وقال بعضهم الى دمشق . وعقد لابي عبيدة عامر بن عبد الله ابن الجراح الفهري ووجهه الى حمص . وكان العقد في بدء الامر لكل أمير على ثلاثة آلاف رجل فلم يزل أبو بكر يتبعهم الامداد حتى صار مجموعهم أربعة وعشرين الفا ؛

هذا هو الجيش القليل العدة النائي الديار الذي سار على بركة الله ليغزو الروم في عقر دارهم . ويجوس خلال ديارهم . ويزعزع اركان ملكهم . وينذر بتقلص سلطانهم . وينشر راية الاسلام على ربوع الشام وأسيا الصغرى والجزيرة وارمينيا وقد فعل فكيف وبماذا ؟

بقوة العزيمة والصبر ، والاعتماد على الله في السر والجهر ، وعدم المبالاة بالحياة في سبيل اعلاء كلمة الدين ، ونصرة الاسلام ، والتعفف عما بأيدي الناس ، وانصاف المغلوب ، وحماية ماله ونفسه ، واطلاق الحرية له في عوائده ودينه ، ما دام يدفع للمسلمين جزءاً من ماله ، يستعينون به على اصلاح حاله ، وتأمين بلده ، وتمهيد طرق الراحة والنظام لقومه ، ويكون له من الحقوق حينئذ ما للمسلمين ، وعليه من واجب المعونة وطاعة الامير والامانة في الجوار ما عليهم ، لا يضار في عرض ولا نفس ولا مال ، هـذا اذا ختار البقاء على دينه ، ورضي باداء جزيته ، وأما اذا أسلم فالمسلمون كما في الحديث (تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ويرد عليهم أقصاهم وهم يد على من سواهم)

ضف الى هـذا ما يصاحب أولئك المجاهدين من حسن الرأي بمن يصاحبهم من رجال الاسلام وأقطاب السياسة والحرب يومئذ كعمرو بن العاص

وأبي عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنهم أجمعين ومن ورائهم مثل أبي بكر يمدهم بالرأي . ويتابع اليهم النصائح . وحسبهم من وصاياه وصيته ليزيد ابن أبي سفيان التي تعجز أقطاب السياسة وتنفع قادة الجيوش وساسة الامم في كل عصر . وقد أوصاه بها لما شيعه ماشياً كما أوصى سائر الامراء

﴿ وصية أبي بكر ليزيد ﴾

اني قد وليتك لأبلوك وأجربك فان أحسنت رددتك الى عملك . وزدتك . وان أسأت عزلتك . فعليك بتقوى الله فانه يرى من باطنك . مثل الذي يرى من ظاهرك . وان أولى الناس بالله أشدهم تولياً له وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً اليه بعمله . وقد وليتك عمل خالد [1] فاياك وعبية الجاهلية فان الله يبغضها ويبغض أهلها . واذا قدمت على جندك فاحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم اياه . واذا وعظتهم فأوجز فان كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً . وأصلح نفسك يصلح لك الناس وصلّ الصلوات لأوقاتها باتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها . واذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم واقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به . ولا ترينهم فيروا خللك ويعلموا علمك . وأنزلهم في ثروة عسكرك . وامنع من قبلك من محادثتهم . وكن أنت المتولي لكلامهم . ولا تجعل سرك لعلانيتك فيخلط امرك . واذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة . ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتي من قبل نفسك . واسمر بالليل في أصحابك تأتك الاخبار وتنكشف عندك الاستار وأكثر حرسك وبدّدهم في عسكرك . وأكثر مفاجآتهم

(١) يريد خالد بن سعيد

فى محارسهم بغير علم منهم بك فمن وجدته غفل عن حرسه فأحسن أدبه وعاقبه في غير افراط وأعقب بينهم بالليل وأجعل النوبة الاولى أطول من الاخيرة فانها ايسرهما لقربها من النهار . ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلجنّ فيها ولا تسرع اليها ولا تخذلها مدفعاً . ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده . ولا تجسس عليهم فتفضحهم . ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم . ولا تجالس العبائين وجالس أهل الصدق والوفاء واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس . واجتنب الغلول فانه يقرب الفقر ويدفع النصر . وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له اهـ

﴿ ابتداء الفتوح ﴾

(بالشام)

علمنا مما سبق ان الجهاد مبنيّ على الدعوة وان المسلمين لا يبدأون أهل الكتاب بحرب ما لم يدعوهم الى خصلة من ثلاث (الاسلام أو الجزية أو السيف) أي الحرب وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم كتب الى هرقل فى جملة من كتب اليهم من الملوك يدعوه الى الاسلام ففى رواية انه أجابه واسلم سراً وفى رواية انه لم يجبه ولما سار الامراء وكتبوا اليه يدعونه الى خصلة من الثلاث وقد كان وقتئذ بالقدس جمع اليه البطارقة وكبار القواد وشاورهم فى امر المسلمين وأشار عليهم بصلحهم فأبوا عليه الا الحرب وكان مما قال لهم (والله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام ويبقى لكم

نصفه مع بلاد الروم أحب اليكم من ان يغلبوكم على الشام ونصف بلاد الروم) ولمَّا لم يوافقوه على رأيه أخذ باعداد الجنود والمدة وأرسل لكل أمير جيشاً ليشغل كل طائفة من المسلمين بطائفة من قومه

وأما أمراء المسلمين فقد أوغلوا بجيوشهم في أحشاء البلاد فنزل أبو عبيدة الجابية . ونزل شرحبيل الاردن . ونزل عمرو بن العاص العربة من فلسطين . ونزل يزيد البلقاء . ومن ثم اختلف المؤرخون في كيفية ترتيب الوقائع فمن قائل ان أول وقعة كانت بين المسلمين والروم وقعة اليرموك ومن قائل غير ذلك والذي قال بالاول بني قوله على أن المسلمين لما تفرقوا فى البلاد وراعهم ما جمعه لهم هرقل من الجموع استشاروا عمراً فأشار عليهم بالاجتماع فاجتمعوا باليرموك وكتبوا الى أبي بكر فأمدّه بخالد بن الوليد ولما وصل اليهم وجد الامراء متساندين فتأمر عليهم ثم هاجم جنود الروم وجرى بين الفريقين قتال شديد انتهى بانكسار الروم وبينما هم في اليرموك جاء الخبر بوفاة أبي بكر وتولية عمر رضي الله عنهما ومع المخبر أمر بعزل خالد وتأمير أبي عبيدة بن الجراح

مع انّ امعان الامراء بجيوش المسلمين فى الجزء الجنوبي والجنوب الغربي من البلاد ووصول بعضهم الى الاردن قرب طبرية والبعض الآخر الى فلسطين ثم اختلاف المؤرخين في عزل خالد بن الوليد هل كان وهم على دمشق أم في اليرموك كل هذا يؤيد ان واقعة اليرموك انما كانت بعد وقائع كثيرة كواقعة مرج الصفر (على وزن سكر) وواقعة اجنادين التى بشر أبو بكر بظفر المسلمين فيها بآخر رمق وواقعة العربة من فلسطين وغيرها وان المسلمين افتتحوا كثيراً من البلاد قبل اليرموك صلحا أو حربا ويؤيد هذا

ما ذكرناه سابقاً نقلاً عن البلاذري من أن أهل حمص عاهدوا المسلمين على الوفاء لما انجلت حاميتهم عن حمص بقصد الاجتماع مع بقية الجيوش على اليرموك

وقد اتفق ابن الاثير والبلاذري على حصول وقائع للسلمين مع الروم قبل وقعة اليرموك وهي وقعة بصرى في حوران وداثن في فلسطين ومرج الصفر وغيرها

والظاهر من هـذه الروايات أن الروم في ابتداء الامر لم يحفلوا بأمر المسلمين ولم يظنوا فيهم القوّة والجرأة على اقتحام عواصم البلاد والتغلغل في احشاء الممالك بجيشهم القليل وعدتهم الضعيفة وهو من سوء الرأي المبني على الكبرياء الباطلة والغرور المضر فانّ الاستهانة بالعدوّ مهما قلّ وهن في السياسة منشأوهُ ما يصيب عقول السياسة في الدول الهرمة من فقد قوة التجارب أو الاعراض عن مصالح الملك حبا بمصالح النفوس وشهواتها

قد مهدت سياسة الروم هـذه للمسلمين ان يقتحموا بجيوشهم البلاد اقتحام المجربين في الحروب العارفين بمواضع الخطر الواقفين على عورات العدو الخبيرين بطرق البلاد فانهم أوغلوا في جنوب الشام على شكل مثلث متقارب الخطوط رأسه في البلقاء مع يزيد بن أبي سفيان مما يلي الحجاز وطرفاه الواحد في الجنوب الغربي في فلسطين وهو مع عمرو بن العاص والآخر في الجنوب والجنوب الشرقي في حوران وهو مع أبي عبيدة بن الجراح وفي الوسط بميلة الى الغرب أيضاً شرحبيل بن حسنة وهو في الاردن . بحيث يمد بعضهم بعضاً من قرب . ومن ورائهم يزيد يحفظ عليهم خط الرجوع ويديم النظر في طرق المواصلات

على هذه الصفة دخلت الجيوش الاسلامية الى الشام وافتتح كل أمير مامرّ عليه من البلاد صلحاً أو حرباً حتى اذا اخذت الصيحة الروم من كل مكان هبوا من غفلتهم هبوب المذعورين . وانتبهوا انتباه الغارين . فضرب هرقل البعث على العرب الضاحية بالشام من بهراء وسليح وغسان وكلب ولخم وجذام وُهم يومئذ حماة البلاد والي الملوك من بني غسان ينتهى القول والعمل فاجتمع لديه منهم ومن الروم زهاء مائة وخمسين الفا فقسمهم وبعث لحرب كل جيش من جيوش المسلمين قسما منهم بقيادة أحد مشاهير القواد

اجتماع الامراء في اليرموك

ووفود خالد بن الوليد عليهم

لما رأى أمراء الجيوش الاسلاميه كثرة ما أعد لهم هرقل من الجنود كتبوا بذلك الى عمرو بن العاص وهو صاحب الرأي فيهم فأشار عليهم بالجلاء عن البلاد والتقهقر الى اليرموك وهو نهر في واد واقع في الجهة الشمالية من جبل عجلون الى الجنوب الغربي من الشام وكتبوا الى أبي بكر فأشار عليهم بالاجتماع أيضاً ريثما يصلهم المدد وكتب الى خالد بن الوليد يأمره بالمسير الى الشام وان يأخذ نصف الناس ويستخلف على النصف الآخر المثنىّ بن حارثة بطل العراق الشهير ولا يأخذن من فيه نجدة الاّ ويترك عند المثنىّ مثله فامتثل خالد الامر وسار بمن معه حتى أتى تَدْمُر وهي على حافة البرية مما يلي وادي الفرات وموقعها الى الشمال الشرقي من دمشق على بعد ١٥٠ ميلا منها بعد ان عانى وجيشه مشقة عظيمة في الطريق وغزا من صادفه من القبائل كما سترى في

سيرته بعدُ ثم قام من هنالك الى ثنية العقاب ومنها الى مرج راهط الواقع شرقي الغوطة فأغار على ارباض دمشق ثم اتجه جنوبا الى بُصرى وقاتل أهاليا فظفر بهم وأرسل بالاخماس الى أبي بكر ثم سار فطلع على المسلمين في ربيع الآخر وقيل في جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة

كان المسلمون الى ذلك الحين يراوحون العدوّ القتال ويطاولونه في النزال متساندين كل أمير على جيشه والعدوّ امامهم بجنده الكثيف الذي يبلغ المائة وخمسين الفاً لايتزعزع بل هو أشبه بالمحصور من ورائه الوادي ومن امامه جند الاسلام فلما رأى ذلك خالد بن الوليد وكان عظيم الرأي في الحرب بعيد النظر في ترتيب الجيوش لم يرق لديه تساند الامراء وايس لهم أمير يجمعهم فجمعهم اليه وخطب فيهم خطبة أنبهم فيها على ماهم فيه من الافتراق في الامارة على ماستري ذلك في سيرته وطلب اليهم أن يجتمعوا على أمير واحد ويتناوبوا الامارة العامة كل يوم واحد وان يؤمروه ذلك اليوم فأطاعوا اشارته وأمّروه فرتب الجيش ترتيباً حسناً ثم نشب القتال وكانت معركة عظيمة ظهر فيها من حمية قريش وشجاعتهم مايؤيد قولنا فيما سبق انّ الله سبحانه وتعالى كما أيّد الدين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالانصار أيّده بعده بقريش . وانجلت المعركة عن انهزام الروم شر هزيمة بعد ان قتل منهم مقتلة عظيمة جداً وأصيب من المسلمين بين قتيل وجريح زهاء ثلاثة آلاف فيهم من وجوه المهاجرين وجلة قريش عدد كبير منهم عكرمة بن أبي جهل من أبطال حروب الردة وعمرو ابنه وسعيد بن الحرث بن قيس ابن عديّ وهو قديم الاسلام ومن مهاجرة الحبشة وأمثالهم من أهل البلاء ووجوه قريش من المهاجرين الأولين ومهاجرة الفتح

لا جرم ان واقعة اليرموك سواء كانت أول وقائع المسلمين مع الروم بالشام أو غير ذلك فانها كانت آخر وقعة قضي فيها على سلطان الروم فى سورية حتى لم يقم لهم بعدها قائمة ولم يستتب لهم فيها أمر واذا رأينا كثرة من أصيب يومئذ من المهاجرين علمنا انهم كانوا محور الحرب الذى دارت عليه رحاها وجُنّتها التي تلقت سهام أذاها. واليهم ينتهى الفضل فى كسر شرّة الروم وتمهيد السبيل لتدويخ بلاد الشام . واستنارة أهلها بنور الاسلام

ليس بعجيب ان يظهر من قريش ما ظهر منهم في اليرموك وهم سادة العرب وحماة الذمار وانما العجب لهذا الرهط ان ينهض بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر نهوضاً يدهش ساسة الممالك من الفرس والروم ويقضى على كثير من ممالك الارض بذلك الانقلاب العظيم في السياسة والدين .والعرب يومئذ على ما نعلم من الاستغراق في البداوة والبعد عن نعيم الحضارة . و انما كان يقودها هذا الرهط من المهاجرين الذين سبقوا الى العلم بالدين وامتلأت قلوبهم بنور الايمان

لا ريب ان هدى الاسلام قد نفذ منهم الى اعماق القلوب وكشف عن بصائرهم غشاء الغرة فأخرجهم من الظلمات الى النور فرأوا طريق السيادة على الأمم واضحاً فسلكوه . وسبيل سعادة الآخرة بيناً فانصرفوا بكليتهم اليه . ففازوا بالنعمتين . وسلكوا بالعرب طريق السعادتين . فجاهدوا فى الله حق جهاده . وعمموا هدى دينه بين عباده

ممن أبلى بهذه الحرب يومئذ أبو سفيان بن حرب وذهبت فيها عينه وخالد بن الوليد والسمط بن الاسود الكندى وعكرمة بن أبي جهل وهو الذي قال لما اشتد الامر على المسلمين وبلغت جنود الروم فسطاط خالد

قاتلت النبي صلى الله عليه وسلم في كل موطن ثم أفر اليوم [١]. ثم نادى من يبايعني على الموت فبايعه الحرث بن هشام وضرار بن الازور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد فتال من باع نفسه في سبيل الله وأصبح الموت أحب اليه من الحياة حتى أصيبوا جميعهم بالجراحات والقتل وأصيب عكرمة وابنه عمرو بجراح فأتى بهما ثاني يوم الى خالد فوضع رأسيهما على فخذيه وجعل يقطر في حلقيهما الماء ويقول . زعم ابن حنتمة يعني عمر انّا لا نستشهد

رحم الله تلك النفوس التي استهانت بالدنيا ومتاعها فتخلى الامير عن امارته والغنيّ عن ماله وملذته والشريف عن عزته والعائل عن أهله وولده التماساً للشهادة . ورغبة بنصرة الاسلام ، وطلباً لقهر العدوّ وخذلانه ، ونصر الدين وأعوانه

أبلى النساء المسلمات في ذلك اليوم كما أبلى الرجال وحملن العمد يضربن بها وجوه الخيل اذا لوت وينادين الى أين ياحماة الاسلام ، وطلاّب الشهادة ، يشددّن بذلك عزائم الرجال ، ويواسينهم بأنفسهن في ساحات القتال ، حتى بلغن من كيد العدو ما لا تبلغه منه السيوف ، وقمن بخدمة الاسلام كما قام رجالهن الذين أوردوا الروم موارد الحتوف ،

فكان النساء يومئذ مجاهدات محرضات ممرّضات يجاهدن العدوّ ويحرضن المسلمين ويمرضن الجرحى وربما قتل للمرأة ولد فبعثت الى ساحات الحرب اباه . أو تسلّت عنه بأخيه

بينما المسلمون في ذلك اليوم في أشد حالات الحرب والصدام قدم

(١) يعني من مواطن قريش لان اسلام عكرمة كان بعد فتح مكة

البريد من المدينة واسمه محمد بن زنيم فسألوه الخبر فأخبرهم بسلامة وامداد وانما جاء بموت أبي بكر وتأمير أبي عبيدة فكتم هذا الخبر عن المسلمين ريثما تضع الحرب أوزارها وتولي الروم أدبارها

وقد اختلف المؤرخون فى هل جاء الخبر بوفاة أبى بكر والمسلمون في اليرموك أو على دمشق كما اختلفوا فى هل فتح شئ من الشام قبل اليرموك في خلافة أبي بكر ومما لا ريب فيه ان جيوش المسلمين لما أوغلت في القسم الجنوبى من الشام افتتحت كل مامرت عليه من البلاد وربما بلغت حمص شمالا كما رواه البلاذرى الا ان انجلاءهم بعدُ عن البلاد وتقهقرهم الى اليرموك جعل ذلك الفتح الاول كأن لم يكن لانتقاض البلاد بعد خروج المسلمين عنها وعدم استطاعتهم ترك الحامية فيها لقلة عددهم وكثرة جنود عدوّهم لهذا عول المؤرخون في سياق أخبار الفتح على ما كان منه بعد اليرموك فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وحار بعضهم فأوردها مشوشة وفي كلا الحالين فان الفتح الحقيقي للديار الشامية انما تم فى زمن عمر بن الخطاب ولأبى بكر الفضل العظيم فيه لسبقه اليه واعداده مثل جيش اليرموك له وأما عزل خالد بن الوليد فالاصح انه جاء وهم على دمشق كما سترى بعد

باب

مناقب أبى بكر وأخلاقه ومآثره

ان أحسن وصف يمثل أبا بكر بفضائله واخلاقه تمثيلا لا يدع في النفس حاجة الى المزيد ماوصفته به أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنه وعنها بخطبة وجيزة العبارة عظيمة المعنى جامعة لشمائل أبى بكر وأخلاقه واذا أتيت بشئ

من ذكر فضائله ومناقبه فانما يكون تفصيلا لما أجملت . وشرحاً لما أوجزت

فقد روي انه بلغها أن أناسا يتناولون من أبيها فأرسلت اليهم فلما حضروا قالت

أبي ماأبيه لاتعطوه الايدي ذاك والله حصن منيف وظل مديد أنجح اذ أكديتم . وسبق اذ ونيتم . سبق الجواد اذا استولى على الامد . فتى قريش ناشئاً وكهفها كهلا . يريش مملقها . ويفك عانيها . ويرأب صدعها . ويلم شعثها . حتى حليته قلوبها . واستشرى في دينه . فما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائه مسجدا يحيي فيه ما أمات المبطلون . وكان رحمة الله عليه غزير الدمعة . وقيذ الجوانح . شجي النشيج . فانصفقت عليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزؤن به والله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . وأكبرت ذلك رجالات قريش فحنت له قسيها . وفوّقت اليه سهامها . فامتثلوه غرضاً فما فلوا له صفاة . ولا قصفوا له قناة . ومرّ على سيسائه . حتى اذا ضرب الدين بجرانه . وأرست اوتاده . ودخل الناس فيه افواجا من كل فرقة ارسالا وأشتاتا . اختار الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ماعنده فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان روافه وشد طنبه ونصب حبائله و جلب بخيله ورجله والقى بركه . واضطرب حبل الدين والاسلام . ومرج عهده . وماج اهله . وعاد مبرمه انكاثاً . وبغي الغوائل وظن رجال ان قد اكثبت اطماعهم نهزها . ولا حين الذي يرجون . وأنا والصدّيق بين اظهرهم فقام حاسرا مشمرا . قد رفع حاشيتيه . وجمع قطريه فردّ نشر الدين على غره ولمّ شعثه بطيه وأقام اوده بثقافه . فابذعرّ النفاق بوطأته . وانتاش الدين فنعشه . فلما اراح الحق على اهله . واقر الرؤوس على كواهلها . وحقن الدماء في اهبها . وحضرته منيته . فسد ثلمته بشقيقه في

المرحمة . ونظيره في السيرة والمعدلة ذاك ابن الخطاب لله أم حملت به ودرّت عليه لقد أوحدت ففنخ الكفرة وديخها . وشرّد الشرك شذر مذر وبعج الارض وبخعها فقاءت أكلها . ولفظت خبئها ترأمه ويصدعنها . وتصدّى له ويأباها . ثم وزع فيأها فيها وتركها كما صحبها فأروني ماذا ترتؤون . وأيّ يومي أبي تنقمون . أيوم اقامته اذ عدل فيكم . أم يوم ظعنه اذ نظر لكم أقول قولي هذا واستغفر الله لى ولكم[1]

سياسته في الخلافة

لم يكن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم موقف أشد وأحرج على المسلمين من موقف وقفه أبو بكر رضي الله تعالى عنه فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مذ كان حياً يتحدّى العرب بالقرآن ويتألفهم بالمعجزات ويذلل عليهم طرق الزيغ بتوالي نزول الوحي بالدلالة على المنافقين منهم . وكشف خبايا ضمائرهم . ومع هذا فقد عانى منهم ما عاني ولقي أشد مايلقى نبي من قومه ولما تولى الخلافة أبو بكر وجاء المسلمين من أخبار الردة وانتقاض العرب ما أوهن عزائمهم وفتّ في عضدهم نظر أبو بكر فرأى أنّ العرب كان يتألفها النبي بالوحي والمعجزات وقد انقطع الوحي وهم مع حداثة عهدهم بالاسلام عريقون بالبداوة ساذجو الفطرة قلّ أن يتأثر وجدانهم الا بما يتأثر به حسهم فلاسبيل الى اجتذاب قلوبهم وامتلاك ضمائرهم واستخذاء نفوسهم بلين الكلام أو قواصر التقريع للاحتيال على ضمائرهم . والتوصل الى كبح جماحهم

---

(١) نقلنا هذه الخطبة عن كتاب النثر المختار بهذا الضبط فلتحرر وقد اوردها ابن عبد ربه في العقد الا ان أيدى النساخ مسختها مسخاً فجاءت ناقصة عن هذه في بعض الجمل ومختلفة عنها في البعض فلتقابل

وان القوّة هي أحسن ما ترتاض به نفوسهم . وتتأثر به حواسهم . وتلين من عريكتهم . وتخضع عاصيهم فانفرد بهذا الرأى دون كثير من الصحابة كما علمت مما مرّ في اخبار الردة فكان رأيه الصائب . وقوله الحق. وعمله الموفق وسياسته الناجعة . حتى اعترف له بالاصابة وحزم الرأى بعدُ جميع الصحابة رضي الله تعالى عنهم وكان من وراء عمله في الردة سلامة الاسلام والمسلمين من هجمات الشرك وغوائل الهمجية وسطوات الاعداء بدليل ما أخرجه البيهقى وابن عساكر عن أبي هريرة قال (والذي لا اله الا هو لولا أنّ أبا بكر استخلف ما عبد الله ثم قال الثانية ثم قال الثالثة) فقيل مه يا أبا هريرة فذكر لهم موقف أبي بكر في انفاذ جيش أسامة وجيوش الردة في حديث طويل قد مضى معنا ما هو بمعناه من أخبار أبي بكر فلا حاجة لا يراده هنا

وكذلك رأيه في انفاذ جيش أسامة يدل على علوّ كعبه في السياسة وبعد نظره في مهمات الامور فانه ظهر به للعرب بمظهرة القوة . واستهان بانفاذه بخطب الردة. فنفث في روع العرب روح الرهبة فكانوا بين مقبل على الردة ومدبر عنها ومتردد بين الامرين حتى وافتهم جيوش المسلمين وهم على فرقتهم وتشتت رأيهم فأخذتهم بما صنعوا . وردتهم عما ابتدعوا . وضرب الاسلام بينهم بجرانه . وقضي على شيطان الجهل وأعوانه

ومن حسن سياسته انه لما استخضع العرب وأراهم سطوة المسلمين وبأس الموحدين . فاستكانوا للاسلام . وأخلدوا الى الطاعة . ولم يرَ بعد ذلك من حاجة لاستعمال الشدّة معهم . رفع العقوبة عن زعمائهم . وألان القول لأمرائهم . تأليفا لقلوبهم . واستفادة من نفوذ رأيهم في أقوامهم فلما جيء له بالسمط بن الاسود الكندي أحد ملوك كندة. وعمرو بن معد يكرب

والاشعث بن قيس أسراء مكبلين غفر لهم زلتهم وعفا عما صدر عنهم فأسر قلوبهم . وامتلك ضمائرهم . فكانوا في المستقبل من انصار الاسلام الكبار . وأعوانه الشداد .

ومن حسن سياسته رفقه بخالد بن الوليد واغضاؤه عن هفوته في قتل مالك بن نويرة مع الحاح عمر عليه باستدعاء خالد الى المدينة ليحاكم وتجري العقوبة عليه . ولما قال له عمر ان سيف خالد فيه رهق وأكثر في اللائمة على خالد . قال ياعمر تأوّل خالد فاخطأ فارفع لسانك عنه فاني لا أشيم سيفا سله الله . وودى مالكا وكتب الى خالد ان يقدم عليه ففعل وأخبره الخبر واعتذر اليه فعنفه أبو بكر ثم تجاوز عنه وقبل عذره

كان خالد ذا عصبية في قومه محبوبا من الجند عظيم الرأي في الجهاد موفقا في الحروب فرأى أبو بكر ان رجلا هذا شأنه لما يضن به ويحرص عليه . لاسيما وانه كان يضمر أن يرمي به الفرس والروم . ويجمع تحت رايته العرب لبث الدعوة ونشر الاسلام في الممالك القاصية . لما يعهده فيه من سداد الرأى والشجاعة والتوفيق . فاكتفى بتعنيفه علما منه بانه ان أخطأ هذه المرة فالتعنيف كاف في تنبيه مثله الى ان لا يعود الى مثلها

ولا يخفى ما كان بعد ذلك لخالد من البلاء العظيم في جهاد الاعداء وما افتتحه من البلاد الواسعة في العراق والشام بحسن اختيار أبى بكر له وعفوه عنه فرضي الله تعالى عنهم أجمعين

ومن حسن سياسته استجلابه لمن توقف عن بيعته من بني هاشم وغيرهم وهم نفر قليل فيهم طلحة والزبير بلين القول والادلال بالحجة دون العنف واستعمال سلطة الخلافة وسلطان القوّة وذلك لحرج الموقف الذي وقف

فيه المسلمون وقتئذ واشرئباب الاعناق الى الخلاف . وتلظّي نار الردة . وترقب المنافقين لفرصة الاختلاف . وتربصهم الشر بالخلافة . وناهيك به موقفاً يحتاج الى الأناة والبصيرة . والصبر والعزيمة . وما زال به أبو بكر حتى بدّد غيومه . ومهد للسكون والسكينة طريقه . فوافته الأمور كما شاء . وانقضت خلافته على أحسن حال كما أحب . ومما قاله يومئذ وهو يدل على اخلاصه في القول والعمل وتوجه نيته الى درء الاخطار المحيطة بالخلافة والفتنة المهددة للمسلمين بتوليه الخلافة وقبوله لها وأخرجه الحاكم وصححه عن عبد الرحمن ابن عوف قال خطب أبو بكر فقال

(والله ما كنت حريصاً على الامارة يوماً ولا ليلة قط . ولا كنت راغباً فيها ولا سألتها الله في سر ولا علانية . ولكني أشفقت من الفتنة ومالي في الامارة من راحة لقد قلدت أمراً عظيما مالي به من طاقة . ولا يد الا بتقوية الله) فقال عليّ والزبير ماغضبنا الاّ لانّا أخرنا عن المشورة وانّا نرى أبا بكر أحق الناس بها انه لصاحب الغار وانّا لنعرف شرفه وخبره ولقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة بالناس وهو حيّ اه

وناهيك بعظيم سياسته وثاقب رأيه وصاياه للقوّاد والامراء بالرفق بالأمم المغلوبة وتجنب كل مايثير بالمحارب ثائرة الاشجان ، أو يدعو الى مس جانب الانسانية أو يخدش وجه العمران . حتى كان من ذلك ان قام ميزان الشريعة بين الامم المغلوبة بالقسط ، وانتشر نور الاسلام على الارض . فأخذ عدله بمجامع قلوب الشعوب فانضووا الى لوائه ، وكانوا من أنصاره وأوليائه،

كان جند الاعاجم من الفرس والروم اذا وطئوا ارضاً فسدوها .

واذا ظفروا بعدوّ مثّلوا به واستباحوا حماه . فجاء جند الاسلام يحمل الدعوة قبل الحرب في يد وأمان البلاد من امثال تلك المنكرات الخسيسة في يد أخرى . وكانوا اذا انتصروا على عدوّ واستباحوا حمى ملك أو أمير يحملون رؤوس البشر الى سدة ملوكهم كبشائر للنصر ، واعلان للفخر ، فرأى أمراء المسلمين في حرب الروم ان يعاملوهم بنفس عملهم فبعث عمرو ابن العاص وشرحبيل بن حسنة برأس بنان أحد بطارقة الشام الى أبي بكر مع عقبة بن عامر فلما قدم به عليه أنكر ذلك عليه . فقال له عقبة . ياخليفة رسول الله فانهم يصنعون ذلك بنا قال . أفيستنّان بفارس والروم لايحمل اليّ رأس انما يكفي الكتاب والخبر اه أخرجه البيهقي

اللهم ليست المدنية بالزخارف التي يتحلّى بها الغربيون الآن ومن ورائها الشهوات تهدم مايبنون ، وتضع مما يرفعون ، تنزع بالقويّ اذا استعلى على الضعيف منازع الظلم والجبروت فلا يبالي أخيراً صنع أو شراً ، وعدلاً أتى أو ظلماً ، يحشرون الى المغارات من البشر ويسدون عليهم فوهته بالحطب يوقدون فيه النار ليميتوهم خنقاً بدخانه . ويروهم التمدن الجديد بسائر ألوانه . [1] أو يصفون الناس صفا ، وينسفونهم بقذائف البارود نسفا [2] أو يجعلون المعابد مرابط للخيل والكلاب . ويحشرون الطائفة المسالمة للموت كما يحشر للمادة اللزجة الذباب . [3] وانما المدنية ماسننت لعبادك في

(١) هكذا صنع الفرنساويون بمسلمي الجزائر لما دوخوا بلادهم

(٢) هكذا صنع الانكليز لما استخضعوا ثوار الهند في ثورتهم الكبيرة

(٣) هكذا صنع جنود الدول الاوربية هذه السنة في الصين وهكذا تصنع الدول الاوربية في كل حرب الا بعضها مع بعض فربما يرفق قليلا

كتابك ، وما فطرت عليه من الرحمة نفوس أوليائك ، الذين آمنوا بنبيك ، وعدلوا بين خلقك ، وتجافوا مضاجع الراحة في سبيل مرضاتك ، وأقاموا الميزان بالقسط لا يظلمون ولا يظلمون

أجل رفع الاسلام نفوس المسلمين عن أمثال تلك الخسائس التي كانت فاشية بين الامم وهذبها على الرأفة والعدل صدراً من خلافة الخلفاء الراشدين كان من ورائهم فيه حكمة أبي بكر ويقظة عمر تسدان على دنيء العادات الوثنية وخسيس السنن الرومية منافذ التسرب الى نفوس المسلمين ، وتقيمان في وجهها حواجز الدين الاسلامي المبين ، وما نشب ان امتد الفتح وكثر الاختلاط وامتزج الامم بحكم الوحدة الاسلامية روميها وعربيها وعجميها وتركيها حتى أعجز الخلفاء الامر ، وأرهق غاشيتهم من العلماء والمقربين الافتتان بحب الدنيا ، فتسامحوا طوعاً بحكم المخالطة ، أو كرهاً بحكم الغلبة ، ففسدت الفطرة ، وامتزجت الاخلاق بالاخلاق ، ومن ثم كان معظم المصائب التي حلت بالمسلمين متأتياً عن غلبة العادات الاعجمية ، وفقد التربية الاسلامية ، وليس هذا محل الاسهاب وربما نأتي بالمناسبة على شيء من ذلك في هذا الكتاب

اخرج البخاري عن قيس بن حازم قال دخل أبو بكر على امرأة من احمس يقال لها زينب . فرآها لا تتكلم . فقال مالها لا تتكلم . فقالوا حجت مصمتة قال لها : تكلمي فان هذا لا يحل هذا من عمل الجاهلية : فتكلمت فقالت من انت : قال امرؤ من المهاجرين ، قالت اي المهاجرين ، قال من قريش قالت ، من اي قريش ، قال انك لسؤل انا أبو بكر . قالت مابقاؤنا على هذا الامر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية . قال بقاؤكم

عليه ما استقامت أئمتكم . قالت وما الأئمة . قال أو ما كان لقومك رؤوس واشراف يأمرونهم فيطيعونهم . قالت بلى . قال فهم أولئك الناس

هذا هو الحق الذى أنطق الله به أبا بكر فحسبنا الله ونعم الوكيل وهو بحسن عافيتنا كفيل (ربّنا انّا اطعنا سادا تنا وكبراءنا فأضلونا السبيل)

﴿ سياسته فى الرعية ﴾

كانت سياسته مع الرعية بشدة من غير عنف . ولين من غير ضعف . بطئ العقوبة غير متعجل فيها الا بقصاص واجب لهذا كان يأخذ على العمال ايغالهم في العقوبة و يأمرهم بالرفق والأناة

ذكر السيوطي ان المهاجر بن أبي أمية كان أميراً على اليمامة فرفع اليه امرأتان مغنيتان غنت احداهما بشتم النبي صلى الله عليه وسلم فقطع يدها ونزع ثنيتها وغنت الاخرى بهجاء المسلمين ففعل بها مثل ذلك فكتب اليه أبو بكر رضى الله تعالى عنه

بلغنى الذي فعلت بالمرأة التي تغنّت بشتم النبي صلى الله عليه وسلم فلولا ما سبقتني فيه لامرتك بقتلها لان حد الانبياء ليس يشبه الحدود فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد أو معاهد . فهو محارب غادر . وأما التي تغنت بهجاء المسلمين فان كانت ممن يدعى الاسلام فأدب وتعزير دون المثلة وان كانت ذمية فلعمرى لما صفحت عنه من الشرك أعظم ولو كنت تقدمت اليك في مثل هذا لبلغت مكروهاً . فاقبل الدعة واياك والمثلة في الناس فانها مأثم ومنفرة الا في قصاص اهـ

ومن سياسته في الرعية ان كان يحذرهم من الدخول في غمار الفتن التي تسفك فيها دماء المسلمين ويحملهم على التعفف عن المغانم والقنعة بالكفاف

فى ابان الفتوح الذى تحولت فيه كنوز الروم وفارس الى المسلمين خشية ان تحيا فيهم ملكة الطمع فتنزع بهم منازع الظلم وتحرك بواعث الطلب من المزيد فيميلون الى الترف والنعيم اللذين يقعدان بهم عن متابعة الجهاد ويشغلانهم عن بث الدعوة بين العباد

أخرج أحمد في الزهد عن سليمان قال. أتيت أبا بكر فقلت اعهد الى فقال. يا سليمان اتق الله واعلم انه سيكون فتوح فلا أعرفن ما كان حظك منها ما جعلته في بطنك وألقيته على ظهرك واعلم انه من صلى الصلوات الخمس فانه يصبح فى ذمة الله ويمسي في ذمة الله تعالى فلا تقتلن أحداً من أهل ذمة الله فتخفر الله في ذمته فيكبك الله في النار على وجهك

﴿ أدبه وتأديبه ﴾

اذا أطلق لفظ لادب فاحر به والله ان يطلق على الصحابة الكرام الذين تأدبوا بآداب النبي عليه الصلاة والسلام فكانوا خير أمة أخرجت للناس وأشرف قدوة في مكارم الاخلاق يقتدي بها المسلمون وناهيك بأبي بكر وصحبته لرسول الله من بدء عهد النبوة الى آخره

﴿ أدبه مع رسول الله ﴾

أخرج ابن عساكر والامام احمد عن يزيد بن الاصم ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر أنا أكبر أو أنت قال انت أكبر وأكرم وأنا أسن منك[1]

وأخرج ابن أبي حاتم عن عامر بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال لما نزلت (ولو انا كتبنا عليهم ان أقتلوا أنفسكم) الآية قال أبو بكر يارسول

---

(١) نقلت هذا الحديث في الطبعة الاولى دون ان ابين انه جاء في رواية اخرى عن العباس عم النبي (ص) وهو الاصح لان النبي أسن من أبي بكر وعمه العباس أسن منه

الله لو أمرتني ان اقتل نفسي لفعلت . فقال صدقت

وأخرج الامام احمد عن عائشة رضى الله عنها انها تمثلت بهذا البيت وأبو بكر يقضي

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ أدبه مع نفسه ﴾

أخرج بن عساكر عن الاصمعى قال كان أبو بكر اذا مُدح قال اللهم أنت أعلم مني بنفسي منهم اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون واغفرلى ما لا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون

﴿ تأديبه لنفسه ﴾

أخرج احمد بسند حسن عن ربيعة الاسلمى رضى الله عنه قال : جرى بيني وبين أبي بكر كلام فقال لي كلمة كرهتها وندم فقال يا ربيعة رد عليّ مثلها حتى يكون قصاصا قلت لا أفعل . قال لتقولن أو لاستعدين عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت ما أنا بفاعل . فانطلق أبو بكر وجاء أناس من أسلم فقالوا لى رحم الله أبا بكر في أى شيء يستعدي عليك وهو الذى قال لك ما قال . فقلت أتدرون من هذا أبو بكر الصديق . هذا ثانى اثنين وهذا ذو شيبة المسلمين اياكم لا يلتفت فيراكم تنصروني عليه فيغضب فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيغضب لغضبه فيغضب الله لغضبهما فيهلك ربيعة وانطلق أبو بكر وتبعته وحدي حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه الحديث كما كان . فرفع الىّ رأسه فقال . ياربيعة مالك والصديق فقلت يارسول الله كان كذا وكذا فقال لى كلمة كرهتها فقال لى قل كما قلت حتي يكون قصاصا

فأبيت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اجل لا تردّ عليه ولكن قل قد غفر الله لك يا أبا بكر اهـ

لله أي وجدان هـذا الوجدان وأيّ نفس تلك النفس . بادرة بدرت منها لمسلم فلم ترض الا اقتصاصه منها ، وصفحه عنها ، تناهيا بالفضيلة ، واستمساكا بالادب . وشعوراً تمكن من الجوانح وأخذ بمجامع القلب فكانت عنده زلة اللسان ولو صغيرة ألماً يتململ منه الضمير فلا يستريح الا بالاقتصاص منه ، ورضا ذلك المسلم عنه ، فاللهم هبنا من عظيم رحمتك اخلاقا تغلب على شهواتنا وتطهر من ادران الكبرياء الباطلة قلوبنا لنرى مواطن الخطأ فنتجنبها ، وطرق الزلل فنتنكبها ، فتبعد عن ظلمات الرذائل خطانا . وتتمكن فضائل السلف الصالح من نفوسنا ، فتمكن لنا في الارض سلطان عزنا ، وتجعل الى ملائك الاعلى مصيرنا ، انك سميع الدعاء

﴿ تأديبه للمسلمين ﴾

كان رضى الله تعالى عنه يتلطف بان يحمل الناس على طريقته . ويؤدبهم أدب نفسه . مع ما كان عليه المسلمون يومئذ من سلامة الفطرة . وطهارة الاخلاق . والتمسك بآداب الشرع . مبالغة في النصيحة لهم . وحناناً عليهم . وقياماً مقام الوالد الرؤف بينهم

أخرج أبو عبيد في الغريب عن أبي بكر أنه مرّ بعبد الرحمن بن عوف وهو يماظ (أى ينازع) جاراً له . فقال له لا تماظ جارك فانه يبقى ويذهب عنك الناس

وخطب الناس يوما خطبة قال فيها : ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد ضل ضلالا مبينا ، أوصيكم بتقوى الله والاعتصام بأمر الله

الذي شرع لكم وهداكم به فان جوامع هدى الاسلام بعد كلمة الاخلاص. السمع والطاعة لمن ولاه الله أمركم فان من يطع الله وأولي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أفلح وادى الذي عليه من الحق . وإياكم واتباع الهوى فقد أفلح من حفظ من الهوى والطمع والغضب . واياكم والفخر وما نخر من خلق من تراب ثم الى التراب يعود ثم يأكله الدود ثم هو اليوم حيّ وغدا ميت

وستأتي هذه الخطبة برمتها في فصل الخطب وكثير امثالها مما تلين له قلوب الجماد ، وتسترشد به الى الفضيلة عقول ذوي العناد ، وتوضح للمؤمنين سبل الهدى والرشاد ،

﴿ أدبه مع المسلمين وتواضعه لهم ﴾

أخرج الامام احمد في الزهد عن ميمون بن مهران قال جاء رجل الى أبي بكر فقال السلام عليك ياخليفة رسول الله . قال من بين هؤلاء اجمعين (يشير الى من كان معه من الصحابة ادباً معهم وتأديباً للقائل)

وأخرج ابن عساكر عن أنيسة قالت نزل فينا أبو بكر ثلاث سنين قبل ان يستخلف وسنة بعد ما استخلف فكان جوارى الحي يأتينه بغنمهن فيحلبهن لهن

واخرج ابن عساكر ايضاً عن أبي صالح الغفارى ان عمر بن الخطاب كان يتعهد عجوزاً فكان اذا جاءها وجد غيره قد سبقه اليها فأصلح ما أرادت فجاءها غير مرة كيلا يسبق اليها فرصده عمر فاذا هو بأبي بكر الذي يأتيها وهو يومئذ خليفة فقال عمر انت هو لعمري

هكذا التسابق الى الفضيلة والتسارع الى الخيرات وهذا منتهى الرأفة

وغاية الغايات من التواضع وحق لأمة هكذا يكون رؤساؤها، وبهذه الاخلاق يتخلق ساداتها، ان تمتلك رقاب البشر، وتسود على البدو والحضر،
وان ديناً هذا تأثيره في الاخلاق وتهذيبه للفطرة لدين الحق الذي لو تمسك اهله بهديه. واهتدوا في ظلمات الحياة بنوره، لكانوا الى هذا العهد أسعد الامم حالا، وأعلى الناس كعباً، ولكنهم فرطوا والمفرط بالخسارة اولى، وبالندامة احرى، (ولا يظلم ربك احداً)

وحسب أبي بكر من الادب والتواضع قوله في خطبته يوم السقيفة يخاطب المسلمين كبيرهم والصغير وعظيمهم والحقير وغنيهم والفقير (قد وليت عليكم واست بخيركم فان احسنت فاعينوني وان اسأت فقوّموني)

يقول ابو بكر لهذا الجمع لست بخيركم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنّ من أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله ابو بكر [1] ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت ابا بكر خليلا ولكن اخوّة الاسلام) اواه كيف لا يكون أبو بكر بعد هذا الحديث خير المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أبرّهم بالنبي وأقربهم اليه وأقدمهم صحبة له وانما هو الادب النبويّ الذي تأدبت به نفسه والتواضع الذى اشرب به قلبه لاينفكان عن مثله، ولا يحطان من جلالة قدره، بل يعليان مكانته في النفوس، ويحببان

---

(١) قال في مشكاة المصابيح قوله أبو بكر هكذا بالرفع في صحيح مسلم وعند البخاري بالنصب وهو الظاهر ووجه الرفع بان تكون (من) زائده على مذهب الاخفش وقيل (ان) بمعنى نعم فيكون ابو بكر مبتدأ ومن امنّ الناس خبره وقيل اسم ان ضمير الشأن وهو نادر مع ان المكسورة كما عرف في النحو والاوجه ماذكره بعضهم انه محكي على ماهو عليه وقد ثبت من قول أمير المؤمنين عليّ فيما اقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم تميماً الداري (شهد به ابو بكر بن ابو قحافة) الخ

به القلوب ، ويمهدان لرعيته طرق الطاعة لامره ، والخضوع له ، والالتفاف حوله ، والعمل باشارته ، والذب عن حوزته .

أين هذا ممن اتخذوا بعدُ اسم الخلافة سلاحاً يضربون به وجوه المسلمين ويمزقون احشاء الاسلام ولم يرضوا لأنفسهم من سمات الخلافة التي ابتدعوها الترفع عن مخاطبة الناس والتحجب وراء الستور والاعتلاء على منصات العظمة والكبرياء حتى انتزعوا لأنفسهم من صفات الالوهية ألقاباً ، واتخذوا من لباس الاعجمية جلباباً ، وركبوا من متن الغرور مراكب صعاباً ، فحكموا الناس بالظلم والاستبداد ، وساقوهم بعصا الاستعباد ، ففرقوا عنهم القلوب وشتتوا كلمة المسلمين فاندفعوا من قرون طويلة في غمار الفتن وشغلوا عن أمر دنياهم بأمر أولئك الجبابرة العتاة بين خارج عليهم ، ومقاتل معهم ، ومنابذ لهم ، يأخذ بأسباب الحيطة لنفسه ، ومظاهر لهم شغلوه في خدمة شهواتهم عن النظر الى يومه وأمسه ، فخمدت من جراء ذلك جذوة العقول ، وفترت القوى ، وانحطت الاخلاق وفقد العلم ، وبارت الصنائع

ومن وراء هذا كله الكذابون والوضاعون يستدرجون أولئك الجبابرة بالطغيان ويتزلفون اليهم بوضع الحديث ليدوسوا بأقدامهم على رقاب الأمة ، ويبدوا نظام الاسلام ، حتى لقد اجترأ أحدهم على أبي جعفر المنصور على قرب عهده بالتابعين وعلمه بالحديث وبعد غوره في الدين فذكر له حديثاً وضعه يطربه فيه فانكره عليه وطرده من حضرته

لهذا لم يزل فريق من الناس ينسب اسباب تقهقر المسلمين الى الدين والدين يبرأ الى الله من كل مايخالف سيرة الصحابة ، ويصادم قوانين الترقي ، كالعلم والحرية والعدل وانما هي نزعات قامت في النفوس تذرع بها اربابها

الى الصاق كل شيء بالدين ليحاربوا باسمه كل شيء خالف أهواءهم ، ونابذ أغراضهم ، ومن لنا بمؤرخ صادق اللهجة شديد العارضة عظيم الاطلاع غير هيّاب من اعداء الحق ولا رغاب في غير الثواب من الله والشكور من الناس يضع لنا تاريخاً يستقصي به اخبار الماضي ويتتبع مظان العلل فيكشف عن بصائر هذه الامة الغطاء ، ويزيل عن ابصارهم الغشاء ، فقد والله سئمت نفوسنا من سرد تاريخ الأمة الاسلامية كما يسرد المنشد قصيداً اختلط غثه بثمينه ، وضعيفه بمتينه ، ونحن مع ذلك لاهون بالسفاسف ولعون بما ابتدعه لنا المبتدعون من وسائل الرضا بالحرمان من العلم ، والسكوت على أذى هذا الظلم ، ولله في خلقه شؤون

زهده وورعه

أعتادت اسماعنا وألفت اذهاننا من معنى الزهد بما ابتدعه لنا المبتدعة ووضعه الوضاعون انه عبارة عن ترك الدنيا والانزواء في زوايا البطالة والكسل ليكون الزاهد عالة على سواه ، مترقباً للرزق ممن عداه ، وهو بهتان على الزهد وعكس لمعناه اذ الزهد في الحقيقة هو التعفف عما بأيدى الناس والقناعة بالكفاف عن الفضول والتماس الحلال من طريق العمل دون الاعتماد على كفاية الاغيار كما سترى ذلك مبسوطا في غير هذا المحل

ومذهب الصحابة فى الزهد هو العفة عن الفضول والقناعة بالكفاف وليس منهم الا من كانت له وسيلة للارتزاق من الحلال هذا مع الرضا بالقناعة وعدم الطموح الى الفضول تهذيباً لنفوسهم واقتداء بنبيهم صلى الله عليه وسلم وذلك هو زهد أبي بكر رضي الله تعالى عنه

مما يروي عن زهده وعفته ورضاه بالكفاف من العيش أن زوجته

اشتهت حلواً فقال ليس لنا ما نشترى به . فقالت انا استفضل من نفقتنا فى عدة أيام ما نشترى به . قال افعلى ففعلت ذلك فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء يسير فلما عرفته ذلك ليشترى به حلواً أخذه فرده الى بيت المال . وقال هذا يفضل عن قوتنا وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم وغرمه لبيت المال من ملك كان له

وروى انه لما ولى الخلافة رأى ان يستمر على استغلال ملكه والارتزاق من وراء عمل يده ولا ينفق على نفسه من بيت مال المسلمين شيئاً فأصبح يوماً وعلى ساعده ابراد وهو ذاهب الى السوق فلقيه عمر فقال أين تريد . قال الى السوق . قال اتصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين . قال فمن أين أطعم عيالي. فقال انطلق يفرض لك أبو عبيدة . فانطلقا الى أبي عبيدة فقال افرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم وكسوة الشتاء والصيف اذا اخلقت شيئاً رددته واخذت غيره . ففرضا له كل يوم نصف شاة وما كساه في الرأس والبطن : اخرجه ابن سعد عن عطاء بن السائب

وأخرج ابن سعد عن ميمون قال لما استخلف أبو بكر جعلوا له الفين فقال زيدوني فانّ لي عيالاً وقد شغلتموني عن التجارة فزادوه خمسمائة

ومما يدل على شدة ورعه وانه انما قبل فرض العطاء له اضطراراً لاشتغاله بأمر المسلمين عن التجارة ما اخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت لما استخلف أبو بكر. قال لقد علم قومى ان حرفتى لم تكن تعجز عن مؤنة اهلى وشغلت بأمر المسلمين فسيأكل آل أبى بكر من هذا المال ويحترف للمسلمين

وروي عن عائشة أم المؤمنين انها دخلت على أبيها في مرضه الذى توفى فيه وطلبت اليه ان يعهد بالامر وهى حزينة كئيبة فرفع رأسه وقال. يا أمه

هذا يوم يجلي لي عن غطائي واشاهد جزائي ان فرحا فدائم . وان ترحا[1] فقيم . اني اطعت امانة هؤلاء القوم[2] حين كان النكوص اضاعة . والخذل تفريطاً . فشهيدى الله ما كان يقياني اياه فبلغت[3] بصحفتهم وتعللت بدرة لقحتهم فاقمت صلاتى[4] معهم لا مختالا اشراً . ولا متكاثراً بطراً . لم اعد سدّ الجوعة ووري العورة . وقواتة القوام . حاضري الله من طوى ممعض تهفو منه الاحشاء . ونجب له المعى .[5] فاضطررت الى ذلك اضطرار المريض الى المعيف الآجن .[6] فاذا أنامت فردى اليهم صحفتهم . وعبدهم واقحتهم . ورحاهم ودثارة ما فوقي اتقيت بها اذى البرد ودثارة ما تحتى اتقيت بها نز الارض كان حشوها قطع السعف المشع

يترك هذا الخليفة العظيم تجارته ويتخلى عن ذرائع كسبه اشتغالا عنها بأمور المسلمين وقياما بوظائف الخلافة فيضطر الى اخذ نفقته من بيت المال عما لا يزيد عن الحاجة الى سد الجوع وستر العورة ثم هو يؤدى للمسلمين خدمة هيهات ان تؤدى حقها الخزائن ويقابلها الشكر ، ولما يقضي واجبه ويشرف على يومه ، ويرى عنده فضلة من مال المسلمين وهي ذلك المتاع الحقير . يأمر بردها الى المسلمين ليلقى ربه آمناً مطمئناً ، نزيه القلب ، طاهر النفس خفيف الحمل الا من التقوى ، فارغ اليدين الا من الايمان ، انّ فى هذا لبلاغاً وانها لموعظة لقوم يعقلون

فاللهم ان هذه التقوى وهذا الزهد وان كان أليق بمثل أبي بكر وألصق

---

(١) وفي نسخة ان فرح فدائم وان ترح فقيم (٢) وفي النبر المختار اني اطاعت بامامة هؤلاء القوم (٣) في النبر تبلغت (٤) وفي النبر فاقمت صلاتى معهم في ادامتهم (٥) وفي العقد ويجب له الامعاء (٦) وفي النبر اضطرار المريض الى المعتب الآجن

عن أدرك عهد النبوّة وأجدر بالخلفاء المهديين الراشدين الا انّ فيهما عظة لو تذكرها بعدُ خلفاء المسلمين وادّرعوا منها جلباباً ليس بالصفيق فيثقل عليهم حمله . ولا بالرقيق فيتكشف عن ضمائرهم مادونه . لما زجّت بهم نزعات النفوس في ظلمات المراسم الاعجمية (المنتزعة من محض الوثنية التي هدمها وكل توابعها الاسلام ونعى على أهلها عوائدهم الخسيسة القرآن) فتركتهم مثلا في الجبارين حاشا افراداً منهم اختاروا لأنفسهم الاعتدال دثاراً ، والتقوى شعاراً فألحقوا بالراشدين وتركوا أحسن الذكر في تاريخ المسلمين

وهيهات لتلك النفوس الهائمة في فضاء الحياة الفانية أن ترضى لنفسها من هذا المتاع الدنيوى ما رضيه لنفسه أبو بكر . وأني للمؤرخ الناقد ان يتتبع منافذ القضاء التي أرسلت علينا من شواظ الوثنية الغابرة شرراً ما زال يعظم ويشتد حتى أعاد لنا سيرتها الأولى ، وأتى على الخضراء واليابسة ، ومعظم النار من مستصغر الشرر .

﴿ جمعه القرآن ﴾

من مناقب أبي بكر العظيمة ومآثره الكبيرة جمعه القرآن. ولا يعلم قدر فضله بهذا العمل الجليل الا من عانى أمر الحديث وعرف مقدار ما اجترأ فيه على الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة القصاص والوضاعين الذين شوّشوا على الأمة في الدين والسياسة والاخلاق تشويشاً الله أعلم بما جرّ على الأمة من البلاء ولولم ينهض أئمة الحديث وحفاظه من أواخر القرن الثانى وما بعده الى تلافي هذا الخطب وتتبع الاسانيد الصحيحة وترتيب درجات الحديث وتفريق الموضوع عن الصحيح لكان الخطب أعظم . والمصيبة أشد.

أما القرآن فلله الحمد والمنة على انه سبحانه تكفل بحفظه فقال تعالى فيه

(انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) (كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حكيم) لهذا ألهم الله أبا بكر وعمر ما ألهم من النهوض الى جمعه من صدور القراء وبعض الصحف فجمع وكتب بين الدفتين دون أن يلحق حرفاً واحداً منه تغيير أو تبديل. وأما سبب جمعه فيظهر مما يلي

أخرج البخارى عن زيد بن ثابت قال (أرسل الىّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر انّ عمر أتانى فقال ان القتل قد استحرّ يوم اليمامة بالناس وانى لاخشى ان يستحرّ القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن الا ان يجمعوه واني لأرى ان يجمع القرآن قال أبو بكر . فقلت لعمر كيف افعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عمر هو والله خير .فلم يزل عمر يراجعنى فيه حتى شرح الله لذلك صدري فرأيت الذى رأى عمر. قال زيد وعمر عنده جالس لا يتكلم فقال أبو بكر انك شاب عاقل ولا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفنى نقل جبل ما كان أثقل علىّ مما كلفنى به من جمع القرآن . فقلت كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم . فقال أبو بكر هو والله خير فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح الله صدر أبى بكر وعمر فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والاكتاف والعُسُب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره (لقد جاءكم رسول من انفسكم) الى آخرها فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنها)

﴿ قضاؤه ﴾

أخرج البغوي عن ميمون بن مهران قال كان أبو بكر اذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله فان وجد فيه مايقضي بينهم قضى به وان لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الامر سنة قضى به فان أعياه خرج فسأل المسلمين وقال أتاني كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قضى في ذلك بقضاء، فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه قضاء. فيقول أبو بكر الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا. فان أعياه ان يجد فيه سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رؤس الناس وخيارهم فاستشارهم فان أجمع رأيهم على أمر قضى به. وكان عمر رضي الله عنه يفعل ذلك فان أعياه ان يجد في القرآن والسنة نظر هل كان فيه لأبي بكر قضاء؛ فان وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به والا دعا رؤس المسلمين فاذا اجتمعوا على أمر قضى به

﴿ مطلب ﴾

﴿ كلام على القضاء في الاسلام ﴾

لا يخفى على من له المام بأصول الشريعة ان الاحكام القرآنية التي كانت تنزل بازاء الحوادث والسنة النبوية التي ورد فيها حكم قضى به الرسول صلى الله عليه وسلم انما هي أصول عامة أو كليات ليس من شأنها الاحاطة بجزئيات الحوادث التي تتجدد في كل وقت ومكان لهذا لما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً الى اليمن قال له بماذا تحكم. قال بكتاب الله. قال فان لم تجد.

قال بسنة رسول الله . قال فان لم تجد . قال اجتهد برأيي وفي رواية اجتهد رأيي . فقال عليه الصلاة والسلام الحمد لله الذي وفق رسول رسوله لما يرضى به رسوله

وانت ترى من هذا ان لأبي بكر رضى الله عنه ان يجتهد برأيه في الحوادث التي لا يكون بازائها نص صريح في الكتاب ولا سنة ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم ومع هذا فهو على بصيرته في الدين وعلمه وتقواه وعدله كان يرى ان لا ينفرد بحكم في نازلة ولا يقضى قضاء ليس بازائه نص صريح الا برأي جماعة من الصحابة مبالغةً في الاحتياط ودفعاً لشبه الضمائر وقد تابعه على هذا عمر رضى الله عنه وحذا حذوه فيه . واذا علمت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر)[1] اتضح لك من جميع ماقدمناه ان هناك أموراً لا ينبغي في هذا الكتاب السكوت عليها وعدم الالمام باطرافها

ان الإجتهاد بمعناه اللغوي هو بذل الجهد وقول معاذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم اجتهد برأيي ظاهر معناه انه يحكم بما يراه بعد بذل الجهد في تمحيص الرأى وتحري الحق واستشارة أهل الرأي وليس هناك قرينة أو شيء آخر يدل على ان معاذاً أراد بقوله اجتهد برأيي معنى غير ماذكرناه[2] وقد رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ورخص به لمعاذ لان الله سبحانه وتعالى جعل الاسلام دين اليسر لادين العسر فقال تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ورسول الله صلى الله عليه وسلم انما رخص لمعاذ بالاجتهاد كي لا تتعطل مصالح المسلمين ولا يكون عليهم حرج في الدين

(١) أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه (٢) أي ما اصطلح عليه الاصوليون

ومن البديهي ان هـذا الترخيص تشريع للاجتهاد الذي هو ادارة الاحكام على المصلحة على تمادي الزمان . وأولى من تحرى مصلحة المسلمين وحكم بالحق أبو بكر رضى الله تعالى عنـه ومع هـذا ومع مارُخّص له به من الاجتهاد فانه رأى ورأيه الحق ان لا ينفرد برأيه في الاحكام ولا يقضي بقضاء مبني على الرأي الا باستشارة جمع من الصحابة واجماعهم على ذلك الرأى تمحيصاً للحق وتحريا للصواب وأخذاً بالاصلح والاحوط

اذن ينتج معنا من هذه المقدمات أمور هي من الاهمية بمكان (منهـا) مشروعية الترخيص بالاجتهـاد عنـد الحاجة أي عند عـدم وجود النص (ومنها) ان الاجتهاد بمعناه اللغوي دائر مع المصلحة والحق . مرخص لوضع الاحكام بازاء الحوادث التي لا يقابلها نص من الكتاب والسنة (ومنها) ان أبا بكر سن سنة الشورى وعدم الانفراد سواء بالرأي بوضع الحكم أو بالقضاء فيه وتابعه على ذلك عمر رضي الله عنهما وهما أولى من يستن بسنتهما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقتدى بهما للحديث السابق

اذا تقرر هذا علمنا ان المسلمين بمـا دخل على نظامهم الاجتماعي من الوهن وما تخلل حكوماتهم من فساد النظام انمـا أتوا من قبل أنفسهم لا من قبل الدين كما يفتريه أعداؤه أو يقول به فريق من سوائم البشر الذين هاموا بمظاهر التمدن كما تهيم السائمة في منابت الكلأ فتجترّ من هنا تارة وهنـاك أخرى بلا نظام ولا ترتيب . اذ الدين لم يحص كل ماتحتاج اليـه المجتمعات الاسلامية من الاحكام الجزئية في المعاملات ولم يقيد الأمة بقيود الحصر بما جاء فيه من كليات الاحكام دون التوسع فيما يقتضي لها من الجزئيات

أجـل قد أصيب القضاء في الاسـلام بآفات عظيمة أثرت كثيراً في

الحالة الاجتماعية عند المسلمين ولكن ماذنب الاسلام وهو دين اليسر الذى دفع عن الأمة الحرج ونبهها الى وجوب التوسع في القضاء بتوسع الحاجات وبما لا ينافي قاعدة الحق والعدل التي تدور عليها مصلحة المسلمين وقد عمل بهذا الخلفاء الراشدون مدة خلافتهم التي كانت الأمة فيها على حال من سذاجة الفطرة وجدة الدين وصفاء القلوب تكاد تجعل التخاصم بين الناس في حكم المفقود لقيام الزواجر النفسية مقام الوازع بالشرع الرادع بالتأديب من جهة ولانحصار المعاملات فى دائرة لم تتعدّ طور السذاجة المذكورة من جهة أخرى . ثم أعقب ذلك فترة اشتغل بها الناس بالجهاد وتوسعوا بالفتح وخالطوا الامم فطرأ بعد ذلك انقلاب في السياسة والملك وتغيير عظيم في أصول المعيشة تشعبت فيه طرق الاعمال وتوسعت أحوال المعاملات والقضاء في غضون ذلك لم يتعدّ طوره الأول الاّ بانتقاله من أيدى الخلفاء الى أيدى أشخاص آخرين هيهات لأخيِر خيّرهم ان يبلغوا عشر معشار الخلفاء من العلم بالشريعة والاخذ بأسباب الحزم والمصلحة وانتهاج منهج العفة والعدل فكان ينتهى اليهم فصل الخصومات فيفصلون بها على قدر مبلغهم من العلم ومكانتهم من عفة النفس ونزاهة الضمير بلا سيطرة عليهم ممن هو أرفع منهم أو قيد بنظام خاص يلزمهم جادة الانصاف ويضطرهم الى تنكب طرق الخطأ أو الجور الا ما جاء من ذلك في كتاب الله من أمر بالعدل ونهى عن الظلم وتحذير من اتباع الهوى وانما يستصلح بالتحذير والزواجر نفس تطهرت بأصل الفطرة من شوائب الهوى ونشأت على سذاجة الفطرة وأولئك هم المسلمون الاولون . وأما من انغمسوا بعد ذلك بحمأ الحضارة وافتتنوا بزخارف العالم الفاني فانهم الى سيطرة السلطان أحوج منهم الى التذكير بالقرآن لهذا جاء

في بعض الآثار (ان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) ولا بد دائما من قوة تصاحب الشعرائع فتقيم شعائرها وتنفذ أوامرها والى هذا وردت الاشارة في كتابه الكريم (ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس)والاسلام بما جاء به من وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر جعل الناس رقباء على أولى السلطة كما جعل هؤلاء مسيطرين على اقامة احكام الشرع فقط ولكن غفلة الناس واهواء الحكام أضاعا مزايا الاسلام وتركا الامة منقادة لجور الرؤساء محكومة بالاهواء . لا تعرف لها حقاً قبل رؤسائها ولا تفتأ تعتمد في تدبير كل شؤونها على قادتها

قام في غضون ذلك من التابعين جماعة نشطوا لجمع السنة في السطور بعد اذ كانت في الصدور ضبطاً لقواعد الشريعة وتقييداً للاهواء ثم تلاهم الائمة والفقهاء الذين وجدوا القرآن مجموعا يسراً والاحاديث قد أحرزت فضبطت فتفقهوا في القرآن والحديث ثم اشتغلوا بالاستنباط والتفريع فوضعوا علم الفروع الذي يشتمل على قسمي العبادات والمعاملات ونعمة الخدمة خدموا بها الاسلام وضبطوا بها أمور القضاء بما وصل اليه اجتهادهم لو لم يزعم من جاء بعدهم من فقهاء كل مذهب انهم تركوا الامور على أكمل الحالات ولم يبق للناس الا ان يحفظوا ما استنبطوه ويعلموا ما بينوه

أجل ان الامر كذلك في قسم العبادات والاعتقادات لانه ليس مبنيا على شيء من الرأى وانما هو أصول ثابتة في الكتاب والسنة توسعوا في بيانها وتوضيحها وأما في قسم المعاملات فليس الامر كذلك الا من بعض الوجوه بدليل ما كان بينهم من الاختلاف الكثير في المسئلة الواحدة ومنشأوه اجتهاد كل

فرد منهم برأيه في طريقة الوضع والقياس والاستنباط ولو ألهم الله القوم ما ألهم أبا بكر وعمر من عدم الانفراد بالرأي فيما لا يكون بإزائه نص صريح من الكتاب أو السنة وأجمع أهل الرأى والعلم منهم على جعل علم الفروع قائما بالتكافل خاليا من شوائب الظنون والاختلاف دائراً مع المصلحة التي تناسب كل عصر ولم يأتِ بعدهم من ينزل أقوالهم منزلة الكتاب العزيز من حيث لزوم الاكتفاء بها وعدم الحيد عنها أو النظر فيما يصلح او ما لا يصلح لكل زمان منها لما عرا نظام القضاء فى الاسلام ماعراه من الخلل والنقص وتلاعب الاهواء

ان لنظام القضاء أثراً عظيما فى ترقي الأمم وتدنيها اذ متى انحرفت حكومة من الحكومات عن طريق العدل وحاولت حكم الأمة بالجور والاستبداد فانها أول ماتتكئ فعلى القضاء فان كان نظام القضاء قويا ثابتاً منعها من الجور وصدها عن سبيل الهوى فحفظ على الناس ارواحهم واموالهم وحقوقهم والعكس بالعكس

ومعاذ الله ان نريد بهذا القول رمي الائمة بالتقصير في جانب الحاجة الاجتماعية اى التوسع في الاحكام بتوسع طرق المعاملات فان هذا فوق طوق الآحاد أو نبخسهم حقهم من الاحترام وهم لعمر الله أولى من يحترم عملهم ويشكر صنيعهم بما خدموا به الشريعة وما عانوه من استنباط الاحكام وتدوينها تسهيلا لتناول الاحكام ودفعا لفوضى الرأى حتى انا لنفاخر غيرنا بما بلغوه من بعيد الشأو وقصيّ الغاية في تتبع احكام المعاملات المدنيه أو فن الحقوق وانما هناك أمور ربما فاتهم النظر اليها اعتماداً منهم على قرب عهد الناس بالاسلام وتمكن التقوى والعدل من النفوس ولم يصلوا الى مكان النظر في الغيب

ليروا ماذا يحدث من الاقضية بعدُ للمسلمين والى أية درجة تنتهي اليه الاخلاق وتتبدل العوائد وقد فسحت تلك الامور لقادة الأمة مجال العبث بالشريعة ومهدت للحكام سبيل الهوى فكانوا في كثير من العصور الاسلامية آفة الامن وسم الاجتماع الا من عصم ربك وهؤلاء لا يبنى عليهم حكم

وأما تلك الامور فهي أولا كثرة الاختلاف بين المخرجين والمرجحين حتى على المسئلة الواحدة مما جعل علم الحقوق أشبه برموز لا يتيسر لاحد من الناس ان يتناول منه حكما جازماً الا بواسطة الفقهاء والمفتين وقليل من الناس المعصوم عن الخطأ أو الغرض فيحلل أحدهم من طريق أحد المرجحين ما يحرمه الآخر من طريق غيره[1] هذا بين علماء المذهب الواحد فما بالك بتعدد المذاهب أيضاً

ثانياً أحكام العقوبات التي لم يرد فيها نص صريح في الكتاب أو السنة كالضرب والتعذير والحبس ووضع لها الائمة والعلماء أحكاما من طريق الرأي أو الاستنباط لم تعين فيها درجات الجرائم على وجه يمنع من تحكم هوى النفوس. وتوزع الاختصاص بالحكم فيها وتنفيذها بين الولاة والقضاة والمحتسبين فكان من ذلك ان تذرع بها الحكام الظالمون للتطاول على أموال الناس وحقوقهم وسلب الراحة والامان من بين ظهرانيهم لاسيما بعد مبالغة الخلفاء بالتحجب وترفعهم عن النظر في المظالم وانزوائهم في زوايا القصور عن انظار الناس

والظلم على ذلك الوجه اذا طال في أمة دمرها وأفسد أخلاقها وأوهن قوتها فتألف المداهنة والنفاق وتذل نفوسها لأولى السطرة وتمنع ثروتها

---

(١) راجع حاشية الدر المختار لابن عابدين وانت ترى فيها ما كتبه شأن المفتين في عصره وكيف توسعوا بالافتاء الى ان أضاعوا الحقوق وبالخاصة حقوق الاوقاف

من الظهور خوف المصادرة فتبور عندها التجارة والصناعة وتقف حركة الاعمال وناهيك بها من آفات تنخر جسم العمران وتهدم من التمدن شوامخ البنيان وقد كاد الظلم على ذلك الوجه يتأصل لقدمه في الامة حتى قال ابن خلدون عن مداهنة الحكام في عصره انها لازم من لوازم الأمن على الانفس والاموال لا حرج فيها على المداهنين. وما أقبحها من حال آلت بالامة الاسلامية الى هذا المآل

ثالثاً تبادل المسئولية [1] بين طبقات العمال وتعيين اختصاص كل فرد منهم بوظيفة خاصة لا يتعداها وقد وضع لها الائمة والعلماء كتبا خاصة كالاحكام السلطانية وآداب القضاة والمفتين واشباهها الا انها اشوبها بآفة الخلاف وخلوها عن تعيين العقوبات التي تقع على المخالفين تعيينا باتا صريحا كادت تكون بحكم المعدوم وان وجد شيء منها فليس وراءه من قوّة التنفيذ ما يقف بكل عامل عند حده وعلة ذلك عدم تحديد المسئولية في تلك الكتب وارتباط العمال بها ارتباطاً يشبه السلسلة المتصلة الحلقات بحيث تكون السيطرة عامة من الكبير على الصغير ومن هذا على الادنى وأنى يتيسر وجود هذه المسئولية لو فرض بيانها في كتب الفروع ما دام لا رأي للأمة في التشريع ولا لأولياء الامر ارتباط بقانون بل هم قادة الأمة الذين ترك المسلمون اعتمادهم عليهم وركنوا بكل شؤونهم اليهم فما راق لديهم من أقوال الفقهاء عملوا به وما لم يرقهم نبذوه وعاملوا الامة معاملة السائمة كما تشاء الاهواء وكم جرّت هذه الفوضى بنظام القضاء من البلاء على الناس وصبت عليهم من المصائب ما لا يتحمله الجماد وليس العهد بها في المملكة العثمانية ببعيد فانا ان لم ندرك شيئاً منها فقد ادرك آباؤنا وأخبرونا بمبلغ ما وصل اليه لذلك العهد انحلال نظام الاختصاص

(١) المراد بالمسئولية هنا على اصطلاح كتاب العصر التبعة

وفقد المسؤلية حتى كان ليأمر بحبس المدين (مأمور الطابو [١]) قبل وضع القانون المعمول به الآن لرجاء من الدائن ومثل هذا وأشد لم يزل حاصلاً في بعض الممالك الاسلامية الى الآن كمملكة مراكش التي يموت بسجنها السجين دون ان يعلم بسبب سجنه أو موته السجان أو يأخذ خبره أحد من الحكام الا من أمر بحبسه لمال يريد ابتزازه منه أو لمجرد التشفي والانتقام وهذا من التناهي في الظلم الناشيء عن تشويش نظام القضاء والعياذ بالله

وتالله ان الاسلام ليبرأ الى الله من التصاق أمثال هذه المخازي بالمسلمين وهو انما شرع الاجتهاد في المسائل التي لا يكون بازائها نص صريح درأً لامثال هذه المفاسد وتلافياً لكل ما عساه يحدث للأمة من الاقضية التي لم تحدث في عصر الرسول عليه الصلاة والسلام لهذا لما كان يعرض على أبي بكر أو من بعده من الخلفاء الراشدين قضية من هذا القبيل يحكمون فيها برأيهم ورأي المسلمين بعد تتبع الكتاب والسنة كما رأيت وهكذا أئمة المذاهب انما الجأهم الى الاجتهاد فى مسائل الفروع والتوسع فى وضع الاحكام توسع الامة بالفتح وتبسطها في مناحي الحضارة وتوفر أسباب التعامل وتنوع طرق التحيل بين الناس

---

(١) هذه وظيفة قديمة فى الدولة وهي خاصة بكتابة صكوك الفراغ والانتقال فى الاراضي الاميرية عملا بقانون الاراضي الذي وضعه السلطان سليمان وقسم به أراضي المملكة الى قسمين خراجية وعشورية وجعل حق التوريث فى الاراضي الخراجية عائداً لنصوص القانون وحق بيعها للحكومة وقد توسعت الدولة فيه الآن حتى جعلت كل الاراضي والمسقفات داخلة تحت معاملات قانون الطابو حتى عدمت حرية التملك والتمليك في المملكة العثمانية وأصبحت الاعيان جميعها ملكا للدولة كما هي مالكة للرقاب أيضا وهو شأن غريب من شؤون الحكومات المطلقة كما سنرى تفصيله بعد

ولا جرم ان سنة الترقي والتدريج تقضي بتوفر تلك الاسباب وتعدد تلك الطرق ومن المصلحة الصالحة ان يدور الاجتهاد مع هذه السنة تلافياً لكل ما يحدث للناس من الاقضية وتقييداً للحكام بالقانون ولو استمر ذلك الى الآن لما طرأ على المسلمين ما طرأ من التقهقر الناشئ عن التضييق فى نظام القضاء ولبلغت قوانينهم الشرعية الى هذا العهد مبلغاً من الترقي يدرأ عنهم كل آفات الظلم التي نخرت عظامهم وزعزعت أركان مجتمعهم ولكن ما الحيلة وقد حتم الفقهاء منذ أجيال طويلة بسد باب الاجتهاد لا لعلة سوى ان هذا القول وافق هوًى من نفوس الامراء الذين تعاكس قاعدة الاجتهاد مقاصدهم فأعانوا الفقهاء على قولهم . ودعموا بالقوّة والجبروت دعواهم اذ الاجتهاد مبني على المصلحة والمصلحة كانت تقضي بسد كل ثلمة يتسرب منها جور الرؤساء الى الأمة وفي هذا غل لأيديهم عن الاستبداد ، وصد لاهوائهم عن التصرف بنفوس العباد ، وهكذا انطوى الثوب على غرّه ، ومضى الامر لهذا العهد على وجهه . حتى بلغت بنا الحال الآن الى العمل بالقوانين الوضعية التي تتمتع الأمم بها بالسعادة الدنيوية وأمامنا الشرع رحب الجناب وسيع الباب يصدنا عنه الفقهاء ويقتلنا دونه الرؤساء فاللهم ارزقنا من فضلك فرجاً، واجعل لنا من هذا الضيق مخرجا ، انك مجيب الدعاء

ربما يتبادر الى الذهن انا نريد بهذه المقدمة فتح باب الاجتهاد لاهل الرأي يلجه منهم من شاء في أي وقت شاء ليتلافوا حاجة القضاء فى كل عصر ، ويطلقوا عنان النظر والبحث في هذا الأمر ، ومعاذ الله ان يخطر لنا مثل هذا فى بال ومن قبله جاء الأمة مصاب الاختلاف، وتشوش نظام القضاء فاصبحت الاحكام عرضة لآفات الخلاف، وانما الذي نراه حاسما للعلة وافيا بالحاجة واقيا

من التمادي في فوضى التفريع هو الاستنان بسنة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في الاجتهاد بالمسائل التي لا يكون بازائها نص صريح في الكتاب أو السنة ذلك بأن لا يتحكم فيها رأي فرد واحد وربما يخالفه فيه الآخر وهكذا الى ما شاء الله فتحكم الأمة الواحدة بعدد غير متناهٍ من القوانين كما هو شأن المسلمين بمخرّجيهم ومرجحيهم الآن بل يكون الامر في ذلك شورى بين طائفة من العلماء المتضلعين في علوم الشريعة الواقفين على حالة الامة والعصر ينتدبهم عند الحاجة ولي الامر في كل قوم من المسلمين (كما كان أبو بكر ينتدب لمعونته بالرأي أهل العلم من المسلمين) ليجتهدوا في وضع الاحكام بازاء الحوادث التي تحدث للأمة [1] وتوافق حالة العصر وتفي بحاجة الترقي والاجتماع واذ كان اجتهاد الصحابة كما علمنا هو عند الحاجة وتعذر وجود النص كذلك ينبغي لاولئك العلماء ان يكون اجتهادهم قاصراً على ما تمس اليه حاجة الدولة والامة من الاحكام التي تقتضيها سياسة الشعور بلزوم العدل وتدرأ بها مفسدة تعطيل الاحكام . او الحكم بالهوى فيما لا يكون بازائه نص صريح في المسائل التي تعرض للحكام .

ومن ثم يتكوّن من احكام الشريعة قانون شامل لاحكام العقوبة والحقوق ليس فيه شيء من مثارات الخلاف يتناول منه الاحكام سائر الناس ويقصر عليه العمل في الدولة على نحو ما صنعته الدولة العثمانية في ترتيب مجلة الاحكام الشرعية التي أغنت الامة عن تكبد عناء الاستفتاء ودرأت عنهم كثيراً من أذى التلاعب بالنصوص

---

(١) يؤثر عن عمر بن عبد العزيز انه قال يحدث للناس من الاقضية بقدر ما يحدث لهم من الفجور وبهذه القاعدة عمل المالكية في التفريع

هذا ما نراه حاسما لداء الفوضى القانونية عند المسلمين قريبا من الصواب وسنة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين وبعدُ فقوق كل ذي علم عليم والله وليّ الارشاد واليه يرجع الامر

﴿ أوّلياته ﴾

منها انه أول من سمي خليفة وأول من ولى خلافة وأبوه حي وأول من فرض له رعيته العطاء وأول من أسلم وقد تقدم الكلام على اسلامه وأول من جمع القرآن وأول من وضع بيت المال

باب

﴿ كتبه وخطبه ﴾

(كتبه)

(كتاب عهده للامراء في حروب الردة) بسم الله الرحمن الرحيم هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه لقتال من رجع عن الاسلام وعهد اليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله سره وجهره وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الاسلام الى أمانيّ الشيطان بعد ان يعذر اليهم فيدعوهم بدعاية الاسلام فان أجابوه أمسك عنهم. وان لم يجيبوه شن غارته عليهم . حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم. فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظرهم ولا يردّ المسلمين عن قتال عدوّهم فمن أجاب الى أمر الله وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف . وانما يقاتل من كفر بالله على الاقرار بما جاء من عند الله . فاذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل . وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به . ومن لم يجب الى داعية الله

قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لايقبل الله من أحد شيئاً مما أعطى الا الاسلام . فمن أجابه وأقر قبل منه وأعانه ومن أبى قاتله فان أظهره الله عليه عزّ وجلّ قتلهم فيه كل قتلة بالسلاح والنيران . ثم قسم ماأفاء الله عليه الا الخمس فانه يبلغناه ويمنع أصحابه العجلة والفساد وان لايدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ماهم لئلا يكونوا عيوناً . ولئلا يؤتي المسلمون من قبلهم . وان يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول اهـ

كتابه الى المرتدين

وسيره اليهم قبل مسير الامراء لحربهم

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى من بلغه كتابي هذا من عامة أو خاصة أقام على الاسلام أو رجع عنه . سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى الى الضلالة والهوى فاني أحمد الله اليكم الذي لا اله الا هو وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله ونؤمن بما جاء به (أما بعد) فان الله أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق من عنده بشيراً ونذيراً . وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً . لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . يهدي الله للحق من أجاب اليه وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم باذنه من أدبر عنه حتى صار الى الاسلام طوعاً وكرهاً ثم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نفذ لأمر الله ونصح لأمته وقضى الذي عليه . وكان الله قد بين ذلك لأهل

الاسلام فقال (انك ميت وانهم ميتون) وقال (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفائن مت فهم الخالدون) وقال للمؤمنين (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين) فمن كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له فان الله بالمرصاد حيٌّ قيوم لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم . حافظ لأمره . منتقم من عدوّه بحزبه . واني أوصيكم بتقوى الله . وحظكم ونصيبكم من الله وما جاء به نبيكم . وان تهتدوا بهديه وان تعتصموا بدين الله عز وجل فانه من لم يهد الله ضلّ . وكل من لم يعافه مبتلى . وكل من لم ينصره مخذول . فمن هداه الله كان مهديا . ومن أضله كان ضالا (من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) ولم يقبل منه في الدنيا عمل حتى يقرّبه . ولم يقبل له في الآخرة صرف ولا عدل . وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد ان أقرّ بالاسلام . وعمل به اغتراراً بالله عزّ وجل . وجهالة لأمره . واجابة للشيطان . وقال جل ثناؤه (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الاّ ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوّ بئس للظالمين بدلا) وقال جل ذكره (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) واني قد أنفذت لكم فلانا في جيش من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله فمن استجاب وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه . ومن أبى ان يقاتله على ذلك ولا يبقى على أحد منهم قدر عليه . وان يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل

قتلة ويسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد الا الاسلام (١) فمن آمن فهو خير له . ومن تركه فلن يعجز الله . وقد امرت رسولي ان يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الاذان فان اذن المسلمون فاذنوا كفوا عنهم وان لم يؤذنوا فاسألوهم بما عليهم فان أبوا عاجلوهم وان أقروا قبل منهم وحملهم على ماينبغي لهم اه

﴿ كتاب عهده لعمر ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ماعهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا واول عهده بالآخرة في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي الفاجر . اني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فان برّ وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه . وان جار وبدل فلا علم لي بالغيب . والخير أردت . ولكل امريء ما اكتسب . (وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون)

﴿ كتابه الى عمرو بن العاص ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم (أما بعد) اني كنت قد رددتك الى العمل الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاكه مرة وسماه لك أخرى مبعثك الى عمان انجازاً لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وليته ثم وليته وقد أحببت أبا عبد الله ان أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه الا ان يكون الذي أنت فيه أحب اليك

﴿ كتابه الى خالد ﴾

وكتب الى خالد بن الوليد منصرفه من الحج يعاتبه ويأمره بقصد الشام

(١) كل هذا مبالغة لاهل الردة بالارهاب فقط

(أما بعد) سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك فانهم قد شجوا وأشجوا، وإياك ان نعود لمثل ما فعلت فانه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجاك ولم ينزع الشجي من الناس نزعك فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة فاتمم يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل وإياك ان تدلّ بعمل فان الله عزّ وجل له المنّ وهو وليّ الجزاء

﴿ كتابه الى أبي عبيدة في شأن الداريين ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أبي بكر الصديق الى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو (أما بعد) فامنع من كان يؤمن بالله واليوم الاخر من الفساد في قرى الداريين وان كانوا أهلها قد جلوا عنها وأراد الداريون يزرعونها فليزرعوها واذا رجع اليها أهلها فهي لهم وأحق بهم والسلام عليك

﴿ كلام على الخطابة عند العرب في الجاهلية والاسلام ﴾

مجمل تاريخ الخطابة عند العرب انها قديمة مع الشعر وكان لهم بها تبريز وفيها ولع، ولها في تاريخهم عظيم الاثر، وطويل الخبر، ونحن نجتزىء من ذلك بذكر ما يهم ايراده ويناسب ذكره توطئة لما سيرد معنا من ذكر خطب أبي بكر وغيره من فصحاء الاسلام فنقول

كانت العادة عند العرب في الخطابة ان يكون الخطيب واقفاً على قدميه مشرفا على الناس لهذا كان اذا خطب خطيبهم في العراء علا نشزاً من الأرض وان لم يجد خطب على الراحلة وفي غير العراء يقف على المنبر وكان لا بد للخطيب من أن يأخذ بيده العصا أو المخصرة أو القوس وتارة يخطب وفي يده القناة وللعرب في هذا أشعار كثيرة فمنها قول معن بن اوس المزني في العصا

فلا تعطى العصا الخطباء يوما وقد تكفى المقادة والمقالا

ومنها قول لبيد بن ربيعة فى القسى

ما ان اهاب اذا السرادق غمه قرع القسيّ وأرعش الرعديد

وقال جرير بن الخطفى في حملهم القناة

من للقناة اذا ماعي قائلها والاعنة يا عمرو بن عمار

ولما جاء الاسلام أقر كثيراً من هذه العوائد والى استعمال المسلمين المخصرة والعصا يشير بقوله كثيّر من شعراء الاسلام

اذا قرعوا المنابر ثم خطوا باطراف المخاصر كالغضاب

وربما كان هذا سبب حمل خطباء المنابر السيف الخشبي الى الآن وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب واقفاً على منبر [1]

وكذلك كان بعده الخلفاء الراشدون يخطبون وهم وقوف الا فى خطبة النكاح فانهم كانوا يخطبون وهم جلوس لهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يتصعّدني كلام كما يتصعّدنى خطبة النكاح ، وذلك لانه كان يخطبها جالسا ، وكان للخطابة عند العرب من المكانة السامية ما كان للشعر يفاخرون بها فى مشاهدهم ، ويتخيّر لها الخطباء من اللفظ أحسن ما عندهم ، الا انها كانت لا تخلو من السذاجة تبعاً لحالة القوم الاجتماعية ، ومعيشتهم القطرية ، ولمّا جاء الاسلام ببيانه ، وضرب بينهم بجرانه ، تفتقت القرائح واتسع مجال الفكر وبعدت مرامي العقول ، فارتقى فنّ الخطابة على عهد الصحابة والتابعين ارتقاء

---

(١) عند الامام احمد وغيره من حديث سعد بن عائذ وسعد القرظ مودن رسول الله (ص) ان رسول الله كان اذا خطب فى الحرب خطب على قوس واذا خطب فى الجمعه خطب على عصا

يدل على ما كمن وراء تلك السذاجة من الاستعداد الباهر الذي كان أشبه بكمون النار في الزناد أظهرها الاحتكاك وطيّر شررها القدح

والفضل فى ارتقاء فن الخطابة في عهد الصحابة والتابعين انما هو عائد للكتاب المبين وذلك من وجوه (منها) ان القرآن وان كان نزل بلغة القوم التي بها يتخاطبون ، وبفصاحتها يتفاخرون ، الا انّ اساليبه العالية التي أعجزت فصحاءهم ، وأخذت بمجامع قلوبهم ، أكسبتهم ملكة من البلاغة في تخيّر الاساليب السامية غير ملكاتهم ، وأطلقت السنتهم من عقال الحوشية والتقعر الذي كان ديدن كثير من خطبائهم وفصحائهم ،

حتى انهم لكانوا يعيبون الخطيب المصقع اذا لم يكن في كلامه شيء من آى القرآن ، فقد روى الجاحظ عن الهيثم بن عدىّ عن عمران بن حطان انه قال : خطبت خطبة عند زياد أو قال ابن زياد فاعجب بها زياد وشهدها عمى وأبي ثم انى مررت ببعض المجالس فسمعت رجلا يقول لبعضهم ، هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن :

وروى الجاحظ عن الهيثم أيضاً انهم (يعنى العرب) كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آي من آي القرآن فانه مما يورث الكلام البهاء والوقار وحسن الموقع

(ومنها) ان الاسلام بما هذب من أخلاقهم وألان من جفاء طباعهم أدخل من الرقة على عواطفهم ما رق به كلامهم وكثر للمعانى المؤثرة في النفوس اختيارهم في خطبهم ومخاطباتهم

(ومنها) أن ما جا في القرآن من الترغيب والترهيب على الاسلوب البالغ حد الاعجاز فى التأثير على الضمائر والاخذ بشكائم النفوس أعانهم على التفنن

في أساليب الوعظ الخطابي عند حلول الازمات ، أو الحاجة الى تأليف قلوب الجماعات، حتى لقد كان الخطيب البليغ منهم ليدفع بالخطبة الواحدة من الملمات ، مالا يدفع بالبيض المرهفات، ويملك من قلوب الرجال مالا تملكه البدر والاموال، كما صنع أبو بكر في خطبه يوم السقيفة التي امتلك بها قلوب المهاجرين والانصار ، وصرف عن الامة تلك الامور الكبار، وكما صنع الحجاج في أول خطبة له في أهل العراق يوم اذ قلبوا للدولة المروانية ظهر المجن ، وسطرت على جباههم آيات الاستكبار والفتن ، فانهم ما طرق مسامعهم داعي الامير الى المسجد حتى أخذوا يفدون اليه افواجا ويلتقطون من ارضه الحصى يريدون رجمه بها وهو على المنبر استصغاراً لشأنه واحتقاراً لمولاه ولم يلبثوا أن طرقت أسماعهم زواجره ، واخترقت جدار قلوبهم صوادع كلمه ، حتى تناثرت من أيديهم الحصى ، وخشعت منهم النفوس ، وطاطأت الرقاب ، رهبة منه واجلالاً له ، كما سيمر عليك في هذا الكتاب ان شاء الله

(ومنها) ان الاسلام بما مهد لهم من سبل الفتح ومخالطة الأمم وبما منحهم من سعة السلطان والسيادة على الشعوب، وفر لهم الاسباب الداعية الى التوسع في الخطابة بما تتطلبه حاجة التوسع في الملك وتقتضيه عوائد الأمم المحكومة واخلاقها

هكذا كان شأن الخطابة في صدر الاسلام ومبلغ تبرز القوم فيها وتسلطهم على النفوس الجافية بقوة سلطانها ، وقوي برهانها. ولكن وا أسفاه فقد بدأ يعروها الوهن ويحتفها الفساد من أواسط الدولة المروانية حيث كان استحكم الفساد باللغة العربية ، ودب في نفوس الخلفاء داء العظمة والكبرياء، فأقلوا من الظهور لعامة الأمة ، وترفعوا بزعمهم عن الوقوف موقف المخاطب للناس ، لا سيا وقد كان الخلفاء في صدر الاسلام يخطبون الناس عند طروء

كل حادث جلل بلا تقييد بوقت ، ولا تكلف لقول ، فكانوا يجمعون المسلمين الى المسجد تارة لاعلان خبر عليهم ، وتارة لاستشارتهم ، ووقتاً لتحذيرهم ، وآخر لوعظهم وتذكيرهم ، وأنّي لمن اتخذوها بعدُ كسروية ان يقفوا للناس هذا الموقف وهم يرون انّ الرأي سلطان لا يتعداهم وانّ الناس بالنسبة اليهم همل لا ينبغي لعصا القوة والجبروت ان تتخطاهم

ما أعظم مكانة الخطيب في النفوس ، وأنفذ كلامه في القلوب ،وأشده اثارةً للعواطف ، اذا كان ذلك الخطيب أمير القوم الذي تتجه نحوه أنظارهم ، وتحدق به أبصارهم ، وتلتف حوله قلوبهم ، وتترامى اليـه آمالهم ، يستلينهم بالقول اذا قسوا ، ويستخضعهم به اذا عصوا ، يمتلك نفوسهم بالرغبة تارة ، وبالرهبة أخرى ، وينفخ فيهم وقت الحاجة روح الحماس فيقذف بهم الجبال فيدكوها بين يديه ، ويلين لهم بالقول ، فاذا استوهبهم الاموال والارواح وهبوها اليه

تالله انهـا لمكانة سـامية انحط عنها الامراء على غير علم ، وسلطان نافذ القوّة في الارواح لا يدانيه نفوذ قوتهم الجبروتية في الاجسام وأنى يضارع الروح الجسم ،ولقد كان أوّل وهن دخل على سلطـان الخطابة في الاسلام في عهـد الوليد بن عبدالملك حيث بدأ بأن يخطب على المنبر جالساً وقد كان الخلفاء قبله يخطبون وهم وقوف ، ومن ثم دب دبيب الاستهانة بهذا الموقف العظيم شأنه ، الجليل شرفه ، حتى مجه الخلفاء والامراء ، وانحط عنه القـادة اما عجزاً عن الوفاء بحقه ، واما استهانة به وترفعاً زعموا عنه ، وكان آخر الخطباء المجيدين من خلفاء المسلمين خليفة المأمون العباسي رضي الله عنه وانما انحلت عرى الخطابة بعدُ لما انحلت عرى الامامة وأخذ الخلفاء يستنيبون بالصلاة

بالناس كما استنابوا غيرهم بكل وظائف الامامة فاصبحت الخطب تتلى على المنابر في ايام الجمع لا لما وجدت له بالذات بل لانها اصبحت من قبيل الرسوم التي ينبغي اداؤها على أيّ حال كان ، حتى كان من ذلك ان تنوسى مع الزمان القصد الذي سنّت من أجله الخطابة في الاسلام فانقلب نفعها ضراً وخيرها شراً بمن انتهت اليهم هذه الوظيفة السامية من جهلاء المسلمين الذين أصبحوا واحزناه ينفثون من أعلى المنابر سموم الجهل والأذى في العقول بعد اذ كانت تشرق منه شموس الحكمة فتنبعث أشعتها في الاقطار ، وتمزق عن البصائر حجب الجهالة . وغشاء الضلالة ، فكم فرّج ذلك الموقف من الكروب ، وكم أزال من الخطوب ، وكم فرّق ما اجتمع على الضلال ، وجمع ماتفرق من القلوب ، وكم أشرف من أعلاه رجال كانت صدورهم ينابيع للحكم يفيضونها على الناس فيضاً . ورؤسهم بما تحملته من العقول أشبه بأوعية البخار ترسل قوته على الناس من أنابيب الافواه ارسالا ، فتحركهم حركة من دبت فيه الحياة ، وامتلأ بروح النشاط . ولكن كان ذلك وأنى لنا ان يكون . والحديث شجون ، وقد اختص بهذه الفضيلة الآن خطباء السياسة الغربيون

خطبه

كان أبو بكر رضى الله عنه فصيح اللسان قوي الحجة اذا خطب كثير التذكير بالله والتخويف منه والترغيب فيه وروى عن الزبير بن بكار انه قال سمعت بعض أهل العلم يقول . أفصح خطباء رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق وعليّ بن أبي طالب

وها نحن ننقل اليك في هذا الكتاب ماوقفنا عليه من خطب أبى بكر رضي الله عنه

١

لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واختبط الناس فأصبحوا بين مصدق ومكذب جاء أبو بكر من السنح ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكلم بكلام سبق ذكره ثم خرج وخطب الناس فقال

أشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد ان سيدنا محمداً عبده ورسوله وأشهد أن الكتاب كما نزل . وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وان القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين ، في كلام طويل ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ، وانّ الله قد تقدم اليكم في أمره فلا تدعوه جزعا ، وان الله قد اختار لنبيه ماعنده على ماعندكم ، وقبضه الى ثوابه وخلف فيكم كتابه ، وسنة نبيه ، فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر ، يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم فعاجلوه بالذي تعجزونه ولا تستنظروه فيلحق بكم

٢

(خطب يوم السقيفة فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه) أيها الناس نحن المهاجرون أول الناس اسلاماً ، واكرمهم أحساباً وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، واكثر الناس ولادة في العرب وأمسهم رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان) فنحن المهاجرون وأنتم الانصار اخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الفيء ، وانصارنا على العدوّ ، وآويتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً ، فنحن الامراء وانتم

الوزراء ، لاتدين العرب الالهذا الحي من قريش ، فلا تنفسوا على اخوانكم المهاجرين مامنحهم الله من فضله

٣

(وخطب يوم السقيفة أيضاً فقال) نحن أهل الله وأقرب الناس بيتاً من بيت الله ، وأمس الناس رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، انّ هذا الأمر وان تطاولت له الخزرج لم تقصر عنه الاوس وان تطاولت له الاوس لم تقصر عنه الخزرج وقد كان بين الحيين قتلى لاتنسى، وجراح لا تداوى ، فان نعق منكم ناعق فقد جلس بين لحيي الاسد يضغمه المهاجري ويجرحه الانصاري اه

ولقد أثرت هذه الخطبة في الانصار تأثيراً بالغاً اذ تنبه لها الاوس فخافوا ان يصير الامر دونهم الى الخزرج وتنبه الخزرج فخافوا أن يصير الامر الى الاوس فتركوا جميعاً الامر لقريش فانطفأت بهذا جذوة الفتنة وأمن الناس شر الخلاف

٤

وخطب بعد أن ولي الخلافة وهي غير خطبته التي أوردناها عند ذكر بيعته ولعلّ هذه خطبته التي خطبها بعد البيعة العامة ، فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

(أمّا بعد) فاني قد وليت أمركم ولست بخيركم ، ولكنه نزل القرآن وسن النبي صلى الله عليه وسلم السنن ، وعلمنا فعلمنا ، فاعلموا أيها الناس ان اكيس الكيس التقى ، واعجز العجز الفجور وانّ أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وانّ أضعفكم عندى القويّ حتى آخذ منه الحق ، أيها الناس انما أنا متبع ولست بمبتدع فاذا أحسنت فأعينوني ، وان أنا زغت فقوّموني اقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم اه

﴿ كلام على الحكومة فى الاسلام ﴾

أورد السيوطي في تاريخه هذه الخطبة وروى فى ختامها عن مالك رضى الله عنه انه قال (لا يكون أحد اماماً أبداً الا على هذا الشرط)

ومن تدبر قول الامام مالك وامعن النظر فيما جاء بتلك الخطبة علم ان الخلافة صارت ملكا عضوضاً وسلطة قاهرة لم يتأت للمسلمين ان يقوّموا زيغ اوليائها منذ عهد بعيد جداً وان تلك الحكومة الاسلامية الاولى التي تمتع بها المسلمون زمنا ليس بكثير وعين أبو بكر حد السلطة العليا فيها بتلك الخطبة الانيفة حكومة ديموقراطية قلّ ان يجد طلاب الحرية والعدل في كل عصر أحسن لسياسة الامم منها ، وانما تمتع بها المسلمون ذلك الزمن القليل مذ كانوا يشعرون شعوراً واحدا بحاجة الحياة الاجتماعية ويعلمون انّ السعادة والشقاء منوطان بالاعتماد على النفس والعمل بسنة التعاون لا بمن يتولى أمرهم ، ويُعطى مقاليد الرئاسة عليهم وهو واحد منهم يشعر كشعورهم ، ويعمل للمصلحة العامة عملهم ، فاذا أحسن أعانوه ، واذا زاغ قوّموه ، ولكن لما فقد منهم ذلك الشعور واستحال الى الاعتقاد بالعجز عن القيام بشؤون الحياة الاجتماعية الا اذا تركوا مقاليد الامور الى رئيس تتجه آمالهم اليه ، ويعولون فى اسباب السعادة عليه ، فيفنى وجودهم فى وجوده ، وتضمحل ارادتهم فى ارادته ، فلا يكون الاما يشاء لاما يشاؤن ولا يعمل الاما يريد لاما يريدون ، استحالت حكومتهم من الديمقراطية الى المطلقة واصبحت الخلافة ملكا عضوضاً وسلطة جائرة نزعت منازع الجبروت واستأثرت بالمصالح واجتثت اصول الشورى ، ومن ثم تشوش نظام الدولة الاسلامية، وانحطت مدارك الامة عن مقام العرفان بواجب الراعى والرعية ، فسلبت منهم نعمة التمتع بالعدل ، كما حرمت حكوماتها نعمة

الراحة والانتظام

وما زال يتفاقم هذا الداء حتى ألف المسلمون حكم الاستبداد ، ورضوا بالجور والعبودية بديلا عن العدل والحرية وباتوا أضعف الامم احساساً بآلام الظلم ، وأبعد الشعوب عن التطلع الى الحرية ، ولم يساووا بالشعور بأذى الحكم المطلق والحاجة الى الحكم المعتدل أقل الشعوب عدداً من الغربيين وأضعفهم قوّة فضلا عن بقية الأمم العظيمة الاوربية وأوضح شاهد على هذا أن المسلمين ما زالوا الى هذا العهد محكومين بأنواع الظلم والاستبداد في كل بقعة من بقع الارض وليس لهم حكومة تضارع أدنى حكومة من حكومات المغرب في الرقي وحسن النظام ومع هذا فليس فيهم ولا شعب واحد يحس بهذا المرض الذي برّح وجرح فينهض لتلافي الأمر وينظر فى سوء المنقلب او يخطر له محاولة الخلاص من هذه الحال في بال

ولقد أصبح كل فلاسفة العالم فى حيرة من هذا التدنى البالغ منتهى درجات الرضا بالشقاء ، والصبر على البلاء ، وبات بعض المتنبهين من رجال الاسلام في حيرة من تعليل الاسباب الداعية لجمود هذه الامة ويأس من سلامة مستقبل المسلمين ، وأما فلاسفة أوربا فانهم ألصقوا أسباب التدنى في الأمة الاسلامية بالدين بدعوى انّ المسلمين والغربيين من طينة واحدة لا فرق بين الفريقين في الخلق والتركيب يدعو الى مثل هذا التفاوت الكبير في الشعور وهو قول في الحقيقة خال عن التحقيق ، بعيد عن الصحة ، اذ الاسباب الداعية لتدني المسلمين واختلال نظام دولهم كثيرة وهي غير الدين الذي يبرأ الى الله من جمود المسلمين وأهم تلك الاسباب استحالة حب الاستقلال الى الاعتقاد بالعجز والاعتماد في سائر شؤونهم على أولياء الامر كما قدمناه والدين يبغض

اليهم العجز وينهاهم عن الرضا بالذل

أفرط بعض الخلفاء بحب الأثرة وفرط المسلمون معهم بحرية الهيمنة عليهم والمشاركة لهم والاشراف على أعمالهم كما كان الامر على عهد الخلفاء الراشدين فكان من ذلك الافراط وهذا التفريط ان فسد كثير من شؤون المسلمين الدنيوية وانحلت عرى حكومتهم الديموقراطية فدخل الوهن على الحاكم والمحكوم ، وشقي الظالم والمظلوم ، وكان الضرر بالخلفاء أعظم ، والندامة بهم ألزم ، اذ ساءت سياستهم للملك وانصرفت هممهم الى السفاسف فتوثب أمراء الاطراف على ملكهم وتشاطروا سلطانهم فلم يدعوا لهم من الامامة الا الرسم ، ولا من السلطان الا الاسم ، فظلموا من حيث ظلموا ، وأخذوا من حيث أخذوا وهم لا يشعرون ، ولو علموا أن سنة الخلفاء الراشدين أبقى على ملكهم وأعز لسلطانهم لما حادوا عنها قيد شبر . ولما خالفوها أبد الدهر ، وهل كانت غزوات التتار وهجمات أهل الصليب الا نتيجة الوهن الذي دخل على الخلافة وأصاب مجموع الأمة وسببه ذلك الافراط والتفريط

أي وهن لعمر أبيك أشد على الامة وأظهر في جانب الخلافة من ان تصير كل قرية كبيرة من الممالك الاسلامية كتكريت في الجزيرة وسنجر في الشام مثلا عاصمة لملك من ملوك الطوائف ينفرد بسلطانه ، ويحكم بشهواته . وينابذ جاره في الملك ، ويقاتل أخاه في الدين ، والامام في عاصمة الاسلام كبغداد ومصر مغلوب على أمره ، محصور السلطة في قصره

ان بقاء المسلمين الى الآن يتمتعون بشيء من الاستقلال بعد تلك الحال التي كانوا فيها فوضى الملك والسياسة وجيوش الصليب والتتار عدة أجيال لمعجزة من معجزات الدهر التي تحير الالباب وتدعو ملوك المسلمين الى النظر

والاعتبار وقياس الماضي على الحال فان مدنية المسلمين التي كانت في تلك العصور أرقى من مدنية سواهم وقتهم على تفرّق كلمتهم ووهن عصبيتهم من الانحلال ، وحفظت سيادتهم من الزوال ، فان انعكست هذه القاعدة الآن وأصبح التمدن الغربي على ما نرى باسطاً رواق القوّة على ما عداه ، راقياً فوق كل تمدن، سبقه فماذا يكون الحكم ؟

انه حكم يستدر عبرات العيون ، ويثير كوامن الشجون ، ويطلق السنة أهل الحق الذين لم يخمد أنفاسهم خلق الرياء ولم تعم أبصارهم عن حالة المسلمين أو تحجب عن بصائرهم سنن الكون فتنادي على ملأ السامعين ان تبعة هذا المصير عائدة على أولياء أمر المسلمين الذين لم تنفذ في جدار قلوبهم صوادع العبر ولم يزل دأبهم دأب آبائهم الأول ولو أصبح الحال غير الحال ، وانطبقت الجبال على الجبال ، أو أذن لاستقلال الامة والملك بالزوال ، ولكل أمة رقدة ولقد طالت رقدة المسلمين ، ولكل نبأ مستقر ولتعلمن نبأه بعد حين

٥

(وخطب مرة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه) أما بعد فاني وليت هذا الامر وانا له كاره ووالله لوددت أن بعضكم كفانيه، الا وانكم ان كلفتموني أن اعمل فيكم بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أقم به ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً اكرمه الله بالوحي وعصمه به ألا وانما أنا بشر ولست بخير من أحدكم فراعوني فاذا رأيتموني استقمت فاتبعوني واذا رأيتموني زغت فقوموني واعلموا انّ لي شيطاناً يعتريني فاذا رأيتموني غضبت فاجتنبوني لا أوثر في اشعاركم وابشاركم اه

تالله لو كان لبشر أن يعصم بعد الرسل لقلنا ذلك أبو بكر وحق لمن أنزل

نفسه تلك المنزلة من التواضع ، وأدبها بذلك الادب ، وأخذ عليها سبيل الترفع على المسلمين بمنصب الخلافة والاثرة دونهم بالرأي ان يرفعه الله الى ذلك المقام الجليل الذي ألف فيه على حبه قلوب المسلمين ، وجعل ايامه كلها خيراً وبركة على الموحدين ، فرضى الله عنه وعن الصحابة أجمعين

٦

ولما أشار عليه الصحابة بعدم قتال أهل الردة وأن لا طاقة له بالعرب خطب فيهم فقال بعد أن حمد الله واثنى عليه

أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حيٌ لا يموت ، أيها الناس ان كثر أعداؤكم وقلّ عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب ، والله ليظهرن هذا الدين على الاديان كلها ولو كره المشركون قوله الحق ووعده الصدق ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ، أيها الناس لو أفردت من جمعكم لجاهدتهم في الله حق جهاده حتى ابلغ من نفسي عذراً ، وأقتل مقتلاً ، والله أيها الناس لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه واستعنت بالله خير معين

٧

وجاء مال من البحرين ساوى في قسمته بين الناس فغضب الانصار فخطب فيهم فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

يا معشر الانصار ان شئتم ان تقولوا انا آويناكم في ظلالنا ، وشاطرناكم في أموالنا ، ونصرناكم بانفسنا ، لقلتم ، وان لكم من الفضل ما لا يحصيه العد ، وان طال به الامد ، فنحن وأنتم كما قال طفيل الغنوي

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت بنا نعلنا في الواطئين فزلت
أبوا ان يملونا ولو أن امنا تلاقى الذي يلقون منا لملت
هم أسكنونا في ظلال بيوتهم ظلال بيوت ادفأت وأظلت

٨

وخطب مرة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه

أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو أهله وان تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الالحاف بالمسئلة فان الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال (انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) ثم اعلموا عباد الله ان الله قد ارتهن بحقه أنفسكم، وأخذ على ذلك مواثيقكم، وعوضكم بالقليل الفانى، الكثير الباقي، وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه ولا يطفأ نوره فثقوا بقوله وانتصحوا كتابه واستبصروا فيه ليوم الظلمة [1] فانه خلقكم لعبادته ووكل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون، ثم اعلموا عباد الله انكم تغدون وتروحون في أجل قد غيب عنكم علمه فان استطعتم ان تنقضي الآجال وانتم في عمل الله ولن تستطيعوا ذلك الا بالله [2] فسابقوا فى مهل باعمالكم قبل أن تنقضي آجالكم فتردكم الى سوء أعمالكم فان أقواما جعلوا آجالهم لغيرهم فانهاكم ان تكونوا امثالهم، فالوحا الوحا ثم النجاء النجاء فان وراءكم طالبا حثيثاً أمره سريعاً سيره

٩

(١) وفي رواية الحاكم والبيهقي هكذا (وهذا كتاب الله فيكم لا يطفأ نوره ولا تنقضى عجائبه فاستضيئوا بنوره وانتصحوا كتابه واستضيئوا منه ليوم الظلمة الخ

(٢) وفي راية الحاكم أيضاً (الا باذن الله)

ومن خطبه الغرّاء في الوعظ والتذكير قوله

الحمدُ للهِ ربّ العالمين احمدهُ واستعينهُ ونسأله الكرامةَ فيما بعد الموتِ فانه قد دَنى أجلي وأجلكُم وأشهدُ انْ لا الهَ الاّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ وأنّ محمداً عبدُهُ ورسولهُ أرسلَهُ بالحقِ بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً لينذِرَ منْ كان حياً ويحقّ القولَ على الكافرين ، ومن يطع اللهَ ورسوله فقد رشد ومن يَعْصهما فقد ضلّ ضلالا مبيناً ، أوصيكم بتقوي الله والاعتصام بأمرِ اللهِ الذي شَرَعَ لكم وهداكم به ، فانّ جوامع هُدَى الاسلام بعدَ كلمةِ الاخلاصِ السمعُ والطاعةُ لمن ولاّه اللهُ أمْرَكم فانه مَنْ يطع اللهَ وأولى الامرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر فقد أفلح وأدّى الذي عليه من الحقّ ، واياكم واتباع الهوى فقد أفلح من حفظَ من اتباع الهوى والطمعِ والغضب ، واياكم والفخر وما فخرُ مَنْ خلقَ مِنْ ترابٍ ثمّ الى التراب يعودُ ثمّ يأكلهُ الدود ثمّ هو اليوم حيٌّ وغداً ميتٌ فاعملوا يوماً بيومٍ وساعةً بساعةٍ وتوقوا دعاء المظلومِ ، وعدّوا أنفسكم في الموتى ، واصبروا فان العمل كله بالصبر ، واحذروا والحذرُ ينفعُ ، واعملوا والعمل يُقبلْ واحذروا ما حذّركم اللهُ من عذابه ، وسارعوا فيما وَعدَكم اللهُ مِنْ رحمتهِ ، وافهموا وتفهموا واتقوا وتوقوا فانّ الله قد بين لكم ما أهلك به من كان قبلكم وما نجي به من نجى قبلكم ، قد بين لكم في كتابه حلالهُ وحرامَهُ وما يحب من الاعمال وما يكرهُ فانى لا آلوكم ونفسي واللهُ المستعانُ ولا حولَ ولا قوّةَ الاّ باللهِ واعلموا انكم ما أخلصتم للهِ من اعمالكم فربّكم أطعتم وحظكم حفظتم واغتبطتم وما تطوّعتم به لدينكم فاجعلوهُ نوافلَ بين أيديكم تستوفوا لسلفكم وتعطوا جرايتكم حينَ فقركم وحاجتكُم اليها ، ثم تفكروا عبادَ اللهِ في اخوانكم وصحابتكم الذين مضوا قد وردوا على ما قدّموا فاقاموا عليه

وَحلّوا في الشقاء والسعادةِ فيما بعد الموت . انّ اللهَ ليس له شريكٌ وليس بينه وبين أحد من خلقه نسبٌ يعطيه به خيراً ولا يصرفُ عنه سوأً الاّ بطاعتهِ واتباعِ أمرهِ فانه لاخيرَ في خيرٍ بعده النارُ ولا شرّ في شرٍّ بعده الجنة اقول قولي هذا واستغفرُ اللهَ لي ولكم وصلّوا على نبيكم صلى الله عليه وسلم والسلام عليه ورحمة الله وبركاته

١٠

(وخطب ايضاً فقال) الحمد لله أحمده واستعينه واستغفره وأومن به وأتوكل عليه واستهدى اللهَ بالهدَى ، وأعوذُ به من الضلالةِ والردَى ، ومن الشكِ والعمى ، من يهدى الله فهو المهتدى ومن يضللْ فلن تجد له ولياً مرشداً واشهدُ انَّ لاالهَ الا اللهُ وحدَه لاشريكَ لهُ لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ يحيي ويميتُ وهو حيٌّ لايموت يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء بيدهِ الخيرُ وهو على كلّ شيءٍ قدير واشهد أنّ محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدَى ودينِ الحقّ ليظهرهُ على الدينِ كلهِ ولو كرهُ المشركون ، الى الناس كافةً رحمةً لهم وحجةً عليهم والناس حينئذٍ على شرّ حالٍ في ظلماتِ الجاهليةِ دينهم بدعة ودعوتهم فرية فأعزّ الله الدين بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم وألف بين قلوبكم أيها المؤمنون فاصبحتم بنعمته اخواناً ، وكنتم على شفا حفرةٍ من النارِ فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون فأطيعوا اللهَ ورسوله فانه قال عزّ وجلّ (مَنْ يطعْ الرسول فقد أطاعَ اللهَ ومَنْ تولى فما أرسلناكَ عليهم حفيظاً) اما بعد ايها الناس اني اوصيكم بتقوى الله العظيم في كلّ أمرٍ ، وعلى كل حال ، ولزوم الحق فيما احببتم وكرهتم فانه ليس فيما دون الصدقِ من الحديثِ خيرٌ ، من يكذب يفجرْ ومن يفجرْ يهلكُ واياكم والفخر وما فخر من خلق من الترابِ والى الترابِ يعودُ وهو اليوم حيٌّ وغداً

ميت فاعملوا وعدّوا أنفسكم في الموتى وما أشكل عليكم فردوا علمه الى الله وقدّموا لانفسكم خيراً تجدوه محضراً فانه قال عزوجل (يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ماعملتْ من خيرٍ محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذّركم الله نفسهُ والله رؤوفٌ بالعباد) فاتقوا الله عباد الله وراقبوه واعتبروا عن مضى قبلكم واعلموا أنه لابدّ من لقاء ربكم والجزاء باعمالكم صغيرها وكبيرها الا ماغفر الله انه غفور رحيم ، فأنفسكم أنفسكم والمستعان الله ولا حول ولا قوّة الا بالله انّ الله وملائكتهُ يصلون على النبي ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما اللهم صلّ على محمد عبدك ورسولك افضل ماصليت على احد من خلقك وزكنا بالصلاة عليه وألحقنا به واحشرنا في زمرته واوردنا حوضه اللهم أعنا على طاعتك وانصرنا على عدوك اه

١١

(وخطب مرة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه) ان أشقى الناس في الدنيا والاخرة الملوك فرفع الناس رؤسهم فقال

مالكم أيها الناس انكم لطعانون عجلون انّ منَ الملوك مَن اذا ملكَ زهدهُ الله فيما بيدهِ ورغبهُ فيما بيد غيرهِ وانتقصه شطرَ أجلهِ وأشرب قلبهُ الاشفاق فهو يحسد على القليل ويسخط على الكثير ويسأم الرخاء وتنقطع عنده لذة البقاء لايستعمل العبرةَ ولا يسكن الى الثقة فهو كالدرهم القيسي والسراب الخادع جذلُ الظاهر حزين الباطن فاذا وجبتْ نفسه ونضبَ عمره وضحى ظله حاسبه الله فأشدّ حسابه وأقلّ عفوه [1] ألا وان الفقراء هم المرحومون

(١) كذا في العقد الفريد وفي البيان والتبيين وجاء في النثر المختار نقلا عن زهر الآداب (وأقل الانصار عنه عقوبة)

الا ان من آمن بالله حكمَ بكتابهِ وسنةِ نبيهِ صلى الله عليه وسلم وانكم اليوم على خلافة نبوّة ومفرق محجةٍ وسترون بعدى ملكاً عضوضاً وَملكاً عنوداً وأمة شحاحا ودماً مباحا فان كان للباطلِ نزوة ولاهلِ الحقّ جولة يعفو لها الاثر ويموت لها الخبر فالزموا المساجد واستشيروا القرآن واعتصموا بالطاعةِ وليكن الابرامُ بعد التشاورِ والصفقةُ بعدَ طولِ التناظرِ أيّ بلاد خرشنة (١) ان الله سيفتح لكم أقصاها كما فتح عليكم أدناها

١٢

وخطب مرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال

ان الله عزّ وجل لا يقبل من الاعمال الا ما أُريد به وجههُ فأريدوا الله باعمالكم ، واعلموا انّ ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة اتيتموها وخطأ (٢) ظفرتم به وضرائب أدّيتموها ، وسلف قدّمتموه من أيام فانيةٍ لأُخرى باقيةٍ لحين فقركم وحاجتكم ، اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان لهم ذكر القتال والغلبةِ في مواطنِ الحربِ ، قد تضعضع بهم الدهر وصاروا رميماً قد تركت عليهم القالات ، الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، وأين الملوك الذين أثاروا الارض وعمروها ؛ قد بعدوا ونسي ذكرهم وصاروا كلا شيء الا ان الله قد أبقى عليهم التبعات ، وقطعَ عنهم الشهوات ، ومضوا والاعمال أعمالهم والدنيا دنيا غيرهم ، وبقينا خلفاً بعدهم فان نحن اعتبرنا بهم نجونا وان اغتررنا كنا مثلهم ، أين الوضاء الحسنةُ وجوههمْ المعجبون بشبابهم صاروا تراباً ، وصار مافرّطوا فيه حسرةً عليهم أين الذين بنوا المدائن

(١) وفى العقد خرسة وفي البيان والتبيين خرشة

(٢) كذا في تاريخ الطبري ولعلها حظ

وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الاعاجيب قد تركوها لمن خلفهم فتلك مساكنهم خاوية وهم في ظلمات القبور هل تحس منهم من احد أو تسمع لهم ركزاً . أين من تعرفون من أبنائكم واخوانكم قد انتهت بهم آجالهم فوردوا على ما اقدموا فحلوا عليه وأقاموا للشقوة والسعادة فيما بعد الموت . الا أن الله لاشريك له ليس بينه وبين أحدٍ من خلقهِ سببٌ يعطيه به خيراً ولا يصرفُ عنه سوءً الآ بطاعته واتباع أمره واعلموا انكم عبيدٌ مدينون وانّ ما عنده لا يدرك الا بطاعتهِ اما انه لاخير بخير بعده النار ولا شرّ بشرٍ بعده الجنة اهـ

رضي الله عن أبي بكر كأنه يريد بهذه الخطبة التى تذكر بالملوك الماضين ان يعظ نفسه ويستزيد من الورع والتقوى هذا على ماعرف به من التقى والعدل وما اشتهر عنه من الحرص على مصالح المسلمين والتبريز في اقامة حدود الشرع على كل أمراء المؤمنين فما اجدر من عبدوا الشهوات وتناهوا في حب الذات من أولياء أمر الامة الاسلامية بعدُ بمثل هذه العظة وما أخلقهم بالاعتبار بذكر الماضين وتأديب نفوسهم بأدب الخلفاء الراشدين وتالله لو فعلوا لجعلوا سلطانهم فوق كل سلطان ولسوّدوا هذه الأمة لهذا العهد على كل الأمم ولم يجعلوها عرضة للبوار ، وغرضاً ترمى اليه بسهام الاذى الاغيار ، فانا لله وانا اليه راجعون

١٣

وخطب عند ما انتدب الناس الى غزو الشام فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

الا انّ لكلِّ أمرٍ جوامع فمنْ بلغها فهي حسبهُ ، ومن عمل للهِ كفاه اللهُ .

عليكم بالجد والقصد فانّ القصدَ أبلغُ ، ألا انه لا دينَ لاحدٍ لا ايمان له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ، ولا عمل لمن لا نية له ، ألا وانّ في كتابِ الله من الثواب على الجهاد ، لَما ينبغي للمسلم انْ يُحبَّ انْ يخصّ بهِ ، هي التجارةُ التي دلّ الله عليها ونجي بها من الخزْيِ ، وأُلحقَ بها الكرامةَ في الدنيا والآخرةِ اه

وله كلام عظيم الاهمية كان خاطب به أبا عبيدة بن الجراح لكي يقوله لعليّ بن أبي طالب حين توقف عن بيعته نرجئ ايراده الى سيرة عليّ رضي الله عنه لما ترتب عليه من كثرة الاخذ والرد بين عليّ وأبي بكر وعمر بشأن الخلافة يومئذ

﴿ تنبيه ﴾

اقتصاداً للوقت واشتغالا بمواد التاريخ قد أغفلت تفسير الالفاظ الغامضة التي وردت في كلام أبي بكر وعائشة وغيرهما في هذا الكتاب وانما أوردت في الهامش بعض الجمل والالفاظ التي اختلفت في بعض الروايات عن البعض الآخر تسهيلا لمن يريد مراجعة اللغة لتطبيق المعنى على اللفظ الصحيح من تلك الالفاظ

باب

﴿ مرض أبي بكر وعهده بالخلافة ووفاته ﴾

(مرضه)

روى في سبب مرض أبي بكر رضي الله عنه انه اغتسل في يوم بارد فحم وأخرج الحاكم عن بن عمر قال (كان سبب موت أبي بكر وفاة رسول الله

صلى الله عليه وسلم كمداً فما زال جسمه يجرى (أى ينقص) حتى مات

روي ان عائشة قعدت عند رأسه يوماً وهو في مرضه فقالت شعراً

وكل ذي إبل يوما موردها   وكل ذي سلب لا بدّ مسلوب

وفي رواية الطبري

وكلّ ذي إبل موروثُ   وكلّ ذي سلب مسلوبُ

وكلّ ذي غيبة يؤبُ   وغائبُ الموت لا يؤبُ

ففهمها أبو بكر فقال ليس كذلك يا ابنتاه ولكنه كما قال الله (وجاءت سكرةُ الموتِ بالحقِ ذلك ما كُنت منه تحيد) وانشدت مرة فوق رأسه أيضاً

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه   ثمال اليتامى عصمة للارامل

فقال أبو بكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولما ثقل على أبي بكر المرض دخلت عليه عائشة فقالت

يا أبت أعهد الى حامتك وأنفذ رأيك في سامتك [1] وانقل من دار جهازك الى دار مقامك انك محصور متصلٌ بقلبي لوعتُك وأرى تخاذلَ اطرافكَ وامتقاعَ لونك والى الله تعزيني عنك ولديه ثوابُ حزني عليك ارقأ فلا ارقأ وأبلّ فلا أبقى [2] . فرفع رأسه اليها وقال

هذا يوم يجلى لى عن غطائى وأعاين جزائى الى آخر ما قال وقد سبق لنا ايراده فيما مر من الكتاب

﴿ استخلافه عمر ووصيته له ﴾

اشتد على أبي بكر المرض فلم يشغله عن أمر المسلمين ولم يثنِ همته عن

(١) وفي العقد اعهد الى خاصتك وأنفذ رأيك في عامتك

(٢) وفي نسخة أرقو فلا أرقى وأشكو فلا أشكي

النظر في مصلحة الأمة وخشي ان هو مات ولم يعهد لاحد بالخلافة ان تكون فتنة تضطرب لها الدهماء ، وتعظم اللأواء ، وفي القوم نفر ينتهي اليهم شرف السيادة في الجاهلية والاسلام وهم في الفضل والتقدم سواء ؛ ولكن لكل منهم مكانة في القلوب غير مكانة من عداه ،وعصبية تريده على الامر وان هو أباه،فان ترك منصب الخلافة شاغراً وجعله شورى بين القوم خيف من تفرّق الرأي وتعذّر تأليف القلوب على واحد من أولئك النفر اذ الشورى في الامور وان كان يراد بها تمحيص الآراء لاختيار الاصلح منها والاصوب فيها الاّ أن صاحب الرأي مجتهد قد يخطئ وقد يصيب وفي الصحابة كما قلنا نفرهم في الفضل والشرف والاهلية كالحلقة المفرغة لا يدري ان طرفاها ولكل واحد منهم عصبية وحزب يريدونه على الخلافة اجتهاداً منهم بوجود الكفاية فيه كما هي في سواه

اذن فالاختلاف متوقع حتما بين المسلمين فيما لو ترك أبو بكر منصب الخلافة شاغراً والمعذرة قائمة للصحابة في هذا الاختلاف مادام فيهم عدة من ذوي الكفاءة وأخصهم أهل بيعة الرضوان من السابقين كما انها قائمة لابي بكر أيضاً في عدم تركه الامر شورى والحال ما ذكر دراً لخطر ذلك الخلاف المتوقع بين قوم هو أبصر بهم وأدرى باخلاقهم وانما نظر أبو بكر فيمن يختاره لذلك المنصب الرفيع شأنه الحرج موقفه فرأى أنه يحتاج الى رجل فيه شدة من غير عنف ولين من غير ضعف وممن توفرت فيهم هذه الصفة من الصحابة الكرام عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب الاّ ان الاول كان ربما يريد الامر فيرى في طريقه عقبةً فيدرو اليه والثاني يرى الاستقامة فلا يبالي بالعقبة تقوم بين يديه فهو بهذا الى الشدة أميل منه الى اللين لهذا لما استشار أبو بكر

الصحابة فيمن يستخلفه أشاروا عليه بعمر

لما عزم أبو بكر ان يعهد بالامر ونظر فيمن يعهد اليه فوقع اختياره على عمر جعل يستشير كل من دخل عليه من الصحابة فى عمر فسأل عبدالرحمن ابن عوف فقال اخبرنى عن عمر بن الخطاب فقال ما تسألنى عن أمر الاّ وأنت أعلم به مني فقال أبو بكر وان فقال عبدالرحمن هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غلظة قال أبو بكر ذلك لأنه يرانى رقيقاً ولو أفضى الامر اليه لترك كثيراً مما هو فيه ثم دعا عثمان فقال اخبرني عن عمر فقال أنت أخبرنا به فقال عليّ ذلك يا أبا عبد الله أخبرنى عن عمر فقال اللهم علمي به ان سريرته خير من علانيته وانه ليس فينا مثله ، وسأل أسيد بن حضير فقال أسيد اللهم اعلمه الخير بعدك يرضى للرضى ويسخط للسخط الذي يسر خير من الذي يعلن ولن يلي هذا الامر أحد أقوى عليه منه ،واستشار غير هولاء سعيد بن زيد وجماعة من المهاجرين والانصار فكلهم قال خيراً

ودخل عليه بعض الصحابة فقال قائل منهم[1] ما أنت قائل لربك اذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد نرى غلظته ، فقال أبو بكر بالله تخوفني ؟ أقول اللهم انى استخلفت عليهم خير أهلك . أبلغ عني ما قلت من ورائك

ثم دعا عثمان فقال اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر ابن أبي قحافة الخ كتاب العهد وقد سبق ايراده في فصل كتب أبى بكر ثم أمر بالكتاب فختمه ثم أمر عثمان فخرج بالكتاب مختوماً فبايع الناس ورضوا به ثم دعا أبو بكر بعمر خالياً فاوصاه ما أوصاه

ومما يؤثر عن أبي بكر هذه الوصية الغراء التي أوصي بها عمر رضي

(١) روى الطبري ـ الذي قال ذلك هو طلحة ابن عبيد الله

الله عنهما

﴿ وصيته لعمر ﴾

اني مستخلفك من بعدي وموصيك بتقوى الله ان لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار وعملا بالنهار لا يقبله بالليل وانه لا تقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة فانما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الا الحق ان يكون ثقيلا وانما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الا الباطل ان يكون خفيفا ان الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيآتهم فاذا ذكرتهم قلت اني أخاف ان لا اكون من هؤلاء ، وذكر أهل النار فذكرهم باسوأ اعمالهم ولم يذكر حسناتهم فاذا ذكرتهم قلت اني لأرجو ان لا اكون من هؤلاء وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهبا ولا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقي بيده الى التهلكة فاذا حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحب اليك من الموت وهو آتيك وان ضيعت وصيتي فلا يكن غائب أبغض اليك من الموت ولست بمعجز الله اه

لما خرج عمر من عند أبي بكر رفع يديه وقال

اللهم اني لم أرد بذلك الا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به واجتهدت لهم رأيا فوليت عليهم خيرهم واقواهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم وقد حضرني من أمرك ما حضر فاخلفني فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك أصلح اللهم ولاتهم واجعله من خلفائك الراشدين واصلح له رعيته

وفي كلامه هذا ما يؤيد قولنا السابق انّ أبا بكر انما أختار للخلافة بعده عمر رضي الله عنهما ولم يتركها شورى خوفا من الفتنة وثقة بكفاءته وسداً لذرائع النزاع من جهة ومن جهة ثانية علما منه بمكانة عمر من السياسة وانه لا يحيد بالأمة عن سبيل الخشونة في العيش والقناعة بالكفاف ولا يترك لها عنان الخوض في غمرات النعيم الرومي والترف الفارسي فتفسد اخلاقها وتسترخي قواها وتفتر عن بث الدعوة همتها ومع انه اختار لها خير كفؤ بشهادة كبار الصحابة كما رأيت فقد تفرس في بعض المهاجرين عدم الرضا كما ترى مما يأتي ولا يحمل ذلك منهم الاّ على الخوف من شدة عمر عليهم والله أعلم

روى ان عبد الرحمن بن عوف دخل على أبي بكر بعد ذلك فوجده مهتما [(١)] فقال أصبحت بحمد الله بارئاً يا خليفة رسول الله فقال

اما اني على ذلك لشديد الوجع ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد عليّ من وجعي ، اني وليت أموركم خيركم في نفسي فكلكم ورم من ذلك أنفه يريد أن يكون له الامر من دونه ورأيتم الدنيا قد أقبلت ولمّا تقبل وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وتألمون الاضطجاع على الصوف كما يألم أحدكم الاضطجاع على شوك السعدان والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حدّ خير له من أن يخوض في غمرة الدنيا ألا وانكم أول ضال بالناس غداً فتصدوهم عن الطريق يميناً وشمالا يا هادي الطريق انما هو الفجر أو البجر [(٢)]

قال فقلت خفض عليك يرحمك الله فان هذا يهيضك على ما بك انما الناس في أمرك بين رجلين اما رجل رأى ما رأيت فهو معك واما رجل خالفك

---

(١) وفي رواية فوجده مفيقاً (٢) وفي نسخة البحر

فهو يشير عليك برأيه وصاحبك كما تحب ولا نعلمك أردت الا الخير ولم تزل صالحا مصلحا مع انك لا تأسى على شيء من الدنيا

﴿ وفاته ﴾

لما ثقل على أبي بكر المرض اوصى عائشة ان يدفن الى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشار الى ثوبيه فقال اغسلوهما وكفنوني فيهما فان الحيّ أحوج الى الجديد من الميت وأوصى ان تغسله امرأته اسماء بنت عميس ويعينها ابنه عبدالرحمن وكتب وصيته بخمس ماله وقال: آخذ من مالي ما أخذ الله من فئ المسلمين: وروى الطبري ان أبا بكر لما حضرته الوفاة: قال انظروا كم انفقت منذ وليت بيت المال فاقضوه عني: فوجدوا مبلغه ثمانية آلاف درهم في ولايته وأخرج الامام احمد عن عائشة رضي الله عنها ان أبا بكر لما حضرته الوفاة قال أيّ يوم هذا. قالوا يوم الاثنين. قال فان مت من ليلتي فلا تنظروا بي الغد فان أحب الايام والليالي اليّ أقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم: وتوفى أبو بكر من ليلته تلك وهي ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادي الآخرة في السنة الثالثة عشرة من الهجرة وله من العمر ثلاث وستون سنة وغسلته امرأته اسماء كما أوصى وصلى عليه عمر بين القبر والمنبر وكبر أربعا ودفن الى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرج ابن هشام عن ابن عروة عن أبيه ان أبا بكر صلي عليه ليلا ودفن ليلا[1] وكانت مدة ولايته سنتين وثلاثة أشهر وبضعة أيام وكان نقش خاتمه (نعم القادر الله)

(١) هكذا كان دفن أبي بكر فليت شعري متى ابدع المسلمون في خير ما ابتدعوه من الاحتفال الذي يشبه احتفال قدماء المصريين بموتاهم وجنائزهم كما نرى ذلك مرسوماً الى الآن على آثارهم اللهم ان ما يفعله المسلمون الآن في مصر وبعض الممالك الاسلامية بالاحتفال بجنائز موتاهم بقية من بقايا الوثنية الاولى لا يرضاها مسلم ولم يسبق الى مثلها أحد من أصحاب نبيك

﴿ خطبة عليّ في تأبين أبي بكر ﴾

أجمع الرواة ان أبا بكر لما قبض ارتجت المدينة ودهش القوم كيوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه باكياً مسرعا مسترجعاً حتى وقف بالباب وهو يقول

رحمك الله يا أبا بكر كنت والله أول القوم اسلاماً واخلقهم ايماناً وأشدهم يقيناً وأعظمهم غنى وأحفظهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحدبهم على الاسلام وأحماهم عن أهله وأنسبهم برسول الله خلقاً وفضلا وهديا وصمتاً فجزاك الله عن الاسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيرا ، صدقت رسول الله حين كذبه الناس واوسيته حين بخلوا وقمت معه حين قعدوا وسماك الله في كتابه صديقاً فقال (والذى جاء بالصدق وصدق به) يريد محمداً ويريدك ، كنت والله الاسلام حصناً وللكافرين ناكبا ، لم تضلل حجتك ولم تضعف بصيرتك ولم تجبن نفسك كالجبل لا تحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف ، كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً في بدنك قوياً في دينك متواضعاً في نفسك عظيما عند الله جليلا في الارض كبيراً عند المؤمنين لم يكن لاحد عندك مطمع ولا هوى فالضعيف عندك قويّ والقويّ عندك ضعيف حتى تأخذ الحق من القويّ وتأخذه للضعيف فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك

﴿ خطبة ابنته عائشة في تأبينه ﴾

نضر الله يا أبت وجهك وشكر لك صالح سعيك فلقد كنت للدنيا مذلاً بادبارك عنها وللآخرة معزاً باقبالك عليها ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك ، وأكبر الاحداث بعده فقدك ، انّ كتاب الله

عزّ وجلّ ليعدنا بالصبر عنك حسن العوض ، وانا منتجزة من الله موعده فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثرة الاستغفار لك فسلم الله عليك توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية على القضاء فيك ،

﴿ ودخل عليه عمر فقال ﴾

ياخليفة رسول الله لقد كلفت القوم بعدك تعباً ووليتهم نصباً فهيهات من شق غبارك فكيف اللحاق بك

﴿ باب ﴾

﴿ ولده وعماله وقضاته وكتابه ﴾

(ولده)

قال ابن قتيبة أولاد أبي بكر عبد الله واسماء أمها قتيلة من بني عامر ابن لؤي ۰ وعبد الرحمن وعائشة أمهما أم رومان بنت الحرث بن الحويرث من بني فراس بن غنم بن كنانة . ومحمد أمه اسماء بنت عميس . وأم كلثوم أمها بنت زيد بن خارجة من الانصار (فأما عبد الله بن أبي بكر) فانه شهد يوم الطائف مع النبي صلى الله عليه وسلم وبقي الى خلافة أبيه وهلك في خلافته وترك سبعة دنانير فاستكثرها أبو بكر وولد لعبد الله اسماعيل فهلك ولا عقب له (وأما اسماء) فهي ذات النطاقين [1] وتزوجها الزبير بمكة فولدت له عدة فطلقها فكانت مع ابنها عبد الله حتى قتل بمكة وبقيت مائة سنة حتى عميت وماتت

(١) ان اسماء هذه رضي الله عنها هي أشجع نساء الاسلام وأثبتهن جأشا وأعظمهن تربية للولد على الشهامة وعزة النفس كما سيمر عليك في سيرة الحجاج

(وأما عائشة) فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وبقيت الى خلافة معاوية وتوفيت سنة ثمان وخمسين وقد قاربت السبعين ودفنت بالبقيع

وقد كانت رضى الله عنها على جانب عظيم من الذكاء وفصاحة اللسان وقد رأيت من كلامها فيما مرّ مايدل على قوّة عارضتها وفصاحة لسانها ولها خطب كثيرة في أعلى مكان من البلاغة وقد أوردنا منها فيما مر مادعت اليه المناسبة وفضلا عن هذا فقد كان يتلقى عنها الحديث ويؤخذ عنها العلم فرحمها الله ورضى عنها

(وأما عبد الرحمن) فشهد يوم بدر مع المشركين ثم أسلم وحسن اسلامه ومات فجأة سنة ثلاث وخمسين بجبل يقرب من مكة فأدخلته عائشة الحرم ودفنته واعتقت عنه وكان شهد الجمل معها ويكنى أبا عبد الله وولد له محمد وعبد الله وحفصة وروى المسعودي ان لعبد الرحمن عقباً كثيرا بدوا وحضرا كانوا بين الحجاز والعراق بالموضع المعروف بالضفيسان

(واما محمد بن ابي بكر) فكان يكنى أبا القاسم وكان من نساك قريش وولاه عليّ بن ابي طالب رضى الله عنه مصر فقاتله صاحب معاوية هناك وظفر به فقتله وولد له القاسم لام ولد وكان فقيهاً فاضلا

(وأما أم كلثوم بنت أبي بكر) فتزوجها طلحة بن عبيد الله فولدت زكريا وعائشة ثم قتل عنها فتزوجها عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي

﴿ عماله وقضاته وكتابه ﴾

لما ولى أبو بكر قال له أبو عبيدة انا أكفيك بيت المال وقال له عمر انا أكفيك القضاء وكان يكتب له عليّ بن أبي طالب وزيد بن ثابت وعثمان

ابن عفان وان غابوا فكان يكتب له من حضر

وكان عامله على مكة عتّاب بن أسيد ومات في اليوم الذي مات فيه أبو بكر وقيل مات بعده وكان على الطائف عثمان بن العاص وعلى صنعاء المهاجر بن أبي أمية . وعلى حضرموت زياد بن لبيد الانصارى.وعلى خولان يعلى بن منية : وهي أمه واسم أبيه أمية: وعلى زَبيد ورِمَع ابى موسى وعلى الجنَد معاذ بن جبل وعلى البحرين العلاء بن الحضرمي.وبعث جرير بن عبد الله الى نجران . وعبد الله بن ثور الى جرش وعياض بن غُنْم . الى دومة الجندل. وكان بالشام أبو عبيدة وشُرَحبيل ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وكل رجل منهم أمير على جيشه وقيل كانت الامارة العامة لخالد وخالد كان من أشهر مشاهير رجال الحرب في عصره لهذا اخترنا ان نورد سيرته ان شاء الله عقب سيرة أبي بكر لانه من رجاله . وكان على العراق المثنى بن حارثة الشيباني استخلفه فيها خالد لما قصد الشام بأمر أبي بكر رضى الله عنهم اجمعين

﴿ باب ﴾

﴿ صفة أبي بكر ﴾

روي ابن قتيبة عن عائشة انها وصفت أبا بكر فقالت . كان أبيض نحيفاً خفيف العارضين أجنأ لا يستمسك ازاره يسترخي عن حقويه معروق الوجه غائر العينين ناتئ الجبهة عاري الاشجع كان يصبغ بالحناء والكتم

هذا ما احببنا ايراده من سيرة أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وقد بذلنا فيما أوردناه من أخباره جهد المستطاع في التحقيق والتنقير وجمع شتيت

الاخبار المتفرقة وضم الاشباه والنظائر منها بعضها الى بعض تسهيلا على المطالعين وتقريباً على المتناولين الآ انّا اغفلنا من سيرته أبوابا لم نرَ حاجة لايرادها في هذا الكتاب لتكفل كتب السنة بها وتفرقها فيها ولانها ليست من خصائص التاريخ بل هي من خصائص كتب الشريعة كالاحاديث والآثار المروية عنه والاحكام الصادرة منه والاحاديث الواردة بفضله ونحو ذلك مما هو مبسوط في كتب السنة وارد في الصحاح وقد بقي علينا فصل واحد نبسط فيه الحالة الاجتماعية على عهد أبي بكر وبعد ذلك نأتي على سيرة خالد بن الوليد ان شاء الله

الحالة الاجتماعية على عهده

جاء الاسلام قاضيا بتوحيد الله وتوحيد الاجتماع وتوحيد الافكار وتوحيد اللغة وتوحيد المقاصد في عصر غلبت فيه نزغات الاهواء البشرية على النفوس ونزع الامم كافة منازع الوثنية فشوّه مؤمنهم وجه الدين وانحرف عن وجهة الكتاب وأوغل كافرهم في مناحي الخيال فخلق من ضعيف التصور اشكالا من العبادة تختلف باختلاف المنازع والاقطار فتشكلت باشكالها الاخلاق وتنوعت المقاصد وتخالفت الوجهة وتناكرت النفوس وتجزأت الوحدة عند كل أمة في الاجتماع والسياسة والدين فاصبح أهل الكتاب اليهود منهم ، بين قرائين وسامرين وربانيين وغيرهم . والنصارى بين يعاقبة وآريوسيين ونسطوريين وما لا يعد من الفرق . وغير أهل الكتاب من الأمم الأخرى بين صابئة ومجوس وزرادشت وبراهمة وما لا يعد من الفرق أيضاً . فكان الانقسام والتجزء في الاجتماع والسياسة تبعاً للنحل قائماً مع الاهواء فباتت الدول المجاورة للعربية وهي فارس والروم (وما أدراك مافارس والروم أعرق

الأمم في المدنية وأقصاها غاية فى التاريخ وأرهبها قوة في الارض وأمدها ظلاً عليها) اشبة بشجرة تأصلت جذورها في الارض وتسامقت فروعها في الفضاء فجاءتها ريح عاصف تمتعت أصلها وتلاعبت باغصانها فقصفتها قصفاً ، وعصفت فيها عصفاً ، فزوت افنانها ، وتفرقت مع الريح اغصانها ، فكانت دولة الروم غرضاً ترمي اليه الاهواء بسهامها وفريسة تتنازعها العناصر المنفردة منها والاقوام المنشقة عنها والشاغبة عليها كالعرب والارمن واليونان والرومانيين والصقالبة وغيرهم

ودولة الفرس كذلك تفككت اعضاؤها وتجزأت وحدتها فاستبد عمالها بالاطراف وتنازعوا سلطان الاكاسرة وتوثبوا على الملك وتعسفوا بالحكم وظلموا الرعية [1] ومن ثم انحلت من تلك الأمم عرى وحدتها وتفرقت اهواء أهلها وتباينت مقاصد قادتها وزعمائها فانزوت شموس مدنيتها وكادت تندثر من الوجود آثار الحضارة والعلم التي انتهت الى دولتي الفرس والروم وتعود حالة البشر الى أقبح ما كانت عليه قبل تاريخ الحضارة وبعثة الانبياء هداة الامم من فوضى الاجتماع وتفرق الاهواء وانحطاط المدارك والعقول ويأبى الله الا أن يتم كلمته في خلقه ويجعل الانسان مظهر قدرته ويديم عليه سوابغ رحمته لهذا أرسل الله سبحانه وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة بشيراً ونذيراً وهاديا الى الله باذنه وسراجا منيراً وأنزل عليه القرآن فيه هدى ونور ورحمة للعالمين لينذر به من كان حياً ويحق القول على الكافرين

فامتثل محمد صلى الله عليه وسلم أمر ربه ودعا الناس الى دينه . دعاهم

---

(١) لهذه الاسباب تولى ملك فارس قبيل الفتح الاسلامي نحو ستة ملوك في بضع سنين وكلهم قتلوا بيد الامراء والرعية قتلا (راجع تاريخ الكامل)

الى توحيد الله فلا يشركون به شيئاً . والى توحيد الاجتماع فلا يتفرقون شيعاً ينابذ بعضها بعضاً . والى توحيد الافكار فلا يجادلون في الحق . والى توحيد المقاصد فلا يتخبطهم شيطان الاهواء وتفرقهم عن الحق نزعات النفوس . والى توحيد اللغة فلا يتناكرون وبلسان واحد يتفاهمون

دعا أولاً أهله وعشيرته ثم قومه ثم سائر العرب ثم عامة الناس بما كتب الى ملوكهم الذين اليهم ينتهي أمر الأمم وبهم تقوم الدعوة حتى قامت لله على الناس الحجة ولله الحجة البالغة على الناس أجمعين . وأجاب دعوة نبيه من أجاب وأقبل عليها من أقبل . وكان جلّهم من العرب الذين لم يلبثوا ان تلقوا هذا الدين حتى ظهر أثره فيهم ظهوراً يبشر بمصير السيادة على الأمم اليهم لما أصبحوا عليه من الاخاء بعد التنافر والاجتماع بعد التفرق والتوحيد بعد الشرك والتنبه بعد الغفلة والايمان بعد الكفر والتحابب بعد التناكر يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويجاهدون في الله وينصرون دينه ويقيمون حدوده ويواسون الفقير ويؤدون الحق ويرغبون بالقناعة بالكفاف عما بايدي الناس ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

على هذا الاساس قامت حياة المسلمين الاجتماعية وبتلك الاخلاق وصف الله اتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم في كتابه العزيز فقال تعالى فيه (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين) وقال تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً) وقال تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) وقال تعالى (انما المؤمنون اخوة) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تمثل حالة المسلمين

يومئذ تمثيلا وتدل على مبلغ تأثير الاسلام في نفوس تلك الأمة البدوية التي أخرجها القرآن من ظلمات الفوضى والجهل الى نور العلم والاجتماع

تلك الحالة الاجتماعية التي كانت في عهد الرسالة كانت كذلك في عهد أبي بكر رضى الله تعالى عنه وقد نهض أبو بكر بعد الرسول صلى الله عليه وسلم باتمام نشر الدعوة وتوحيد كلمة الشعوب نهوضاً بسطناه فيما تقدم من سيرته فرمى بالجيوش الاسلامية فارس والروم ليكونوا حماة الدعوة بعد اذ لم تنجح فيهم الدعوة مجردة عن القوّة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فخالط المسلمون تلك الأمم البالغة منتهى درجات الرفاه والتنعم المنغمسة فى حمأ الشهوات النفسية ودوخوا بلادهم واستفتحوا كنوزهم ومع هذا فلم يؤثر ذلك في اخلاقهم ولم تدعهم تلك الزخارف الى تنكب المحجة التي تركهم عليها نبيهم لا سيما وانّ القرآن بين أيديهم يهتدون بهديه وأبو بكر من ورائهم يحملهم على طريقته ويؤدبهم بأدب نفسه وكان جل همه منصرفا الى اقامة شمائر الدين والتأدب بآداب النبي صلى الله عليه وسلم خصوصاً في خشونة العيش وكبح جماح النفوس والقناعة بالكفاف هذا مع علمه بان الله سبحانه وتعالى أحلّ الطيبات للمؤمنين وانما هو كان حريصاً على تأدب المسلمين بآداب النبوة وآدابه كي لا يشغلهم عن بث الدعوة والجهاد في الله وتوحيد كلمة الشعوب شاغل الاخلاد إلى الراحة والرغبة بنعيم الحياة الفانية وأنى يشغلهم شئ عن أمر الله وهم خير أمة أخرجت للناس وعصرهم خير العصور

وكيف لا يكون خير العصور وقد كان فيه المؤمنون على جانب من سلامة الفطرة وطهارة الاخلاق وتآلف القلوب ونصرة العدل والحق ومواساة الضعيف والقيام بواجب الاخاء وتبادل الثقة والحب لم تبلغ مبلغهم فيه أمة

حديثة عهد في الدين من قبل ولن يتأتى لأمة سواهم من بعد

روى الغزالى في الاحياء ان تبادل الثقة والحب بين المسلمين يومئذ بلغ بهم ان كانوا خلطاء بالمال يأخذ فقيرهم من مال الآخر مصداقا لقوله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)

وبلغت بهم معرفة الحقوق والوقوف عندالحدود ان لا يتخاصم منهم اثنان امام القضاء في حق صدراً من خلافة أبي بكر فقد روي انّ عمر بن الخطاب لما استقضاه أبو بكر رضي الله عنهما بقى سنة لا يحضر عنده خصمان فى دعوى ولا يتخاصم لديه اثنان في حق

ولما كان أبو بكر رضي الله عنه خير قدوة للمسلمين وقد كان على جانب من التواضع وشظف العيش وخشونة الملبس مع غناه ووفر دخله من أملاكه فقد اقتدى به المسلمون وتخوشنوا في مأكلهم وملبسهم وتعفف كبارهم حتى عن التنعم بدخلهم فقد قال المسعودي فى تاريخه انه لما قدم على أبي بكر زعماء العرب واشرافهم وملوك اليمن وعليهم الحلل وبرد الوشي المثقل بالذهب والتيجان والحبرة وشاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك وما هو عليه من الوقار والهيبة ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير ومعه ألف عبد دون ما كان معه من عشيرته وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحلى ولما شاهد من أبي بكر ما وصفنا ألقى ما كان عليه وتزيا بزيه حتى انه رؤي يوما فى سوق من أسواق المدينة وعلى كتفيه جلد شاة ففزعت عشيرته وقالوا له فضحتنا بين المهاجرين والانصار قال ، فأردتم أن أكون ملكا جباراً في الاسلام لا والله لا تكون طاعة الرب الاّ بالتواضع والزهد ، قال المسعودي وتواضعت الملوك ومن

ورد عليه من الوفود بعد التكبر وذلوا بعد التجبر

ولا جرم انّ قدوة الأمم رؤساؤها وقادتها الى الخير والشر ملوكها ولم يرنا التاريخ مصارع قوم هلكى بشقاء الحياة الا بملوكهم كما لم يرنا تسوّد قوم وتمتعهم بسعادة الحياة الا اذا استقام ملوكهم

هذه كانت الحالة الاجتماعية على عهد أبي بكر رضى الله عنه وقد بسطناها اليك على وجه الاجمال لتتذكر وتعتبر . وتتق الله في نفسك وتزدجر . والله ولىّ الصالحين

وهذا آخر الكلام على خلافة أبى بكر رضى الله عنه وارضاه ووفق ولاة امورنا للنظر فيما كان عليه الخلفاء من قبل . والله يعصمنا واياهم من الجهل .

خالد بن الوليد

باب

(حاله في الجاهلية)

« نسبه وأصله »

خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم أبو سليمان وقيل أبو الوليد القرشى المخزومى أمه لبابة الصغرى وقيل الكبرى والاول أصح وهي بنت الحارث بن حزن الهلاليه وهى اخت ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم واخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب وهو ابن خالة اولاد العباس بن عبد المطلب الذين من لبابة

﴿ شرفه في قومه ومكانته عندهم ﴾

تقدم معنا في صدر الكتاب ان خالد بن الوليد ممن انتهى اليهم الشرف في الجاهلية من قريش وانه كان على الاعنة والقبة وابنا ثمة المراد من القبة والاعنة فلا حاجة للاعادة هنا لهذا كان في وقائع بدر وأحد والخندق على خيل المشركين ولم يشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم الاّ مابعد الفتح من الوقائع وقد كان خالد في قومه موصوفا بالشجاعة محبباً فيهم مقدما عندهم بالحروب موفقاً للنصر عارفا باصول الحرب حائزاً على صفات الجندية التي يلازمها في الغالب خشونة الطبع وعنفوان الشجاعة والاخذ بالشدة والتسرع الى المعاقبة لهذا لما بدر منه بعد اسلامه مابدر من التسرع في حادث مالك بن نويره قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ان سيف خالد فيه رهق وألح على أبي بكر بعزله عن قيادة الجند خوف استرساله في الشدة على المحاربين والاسلام يأبى الشدة و يأمر بالاناة والحلم وعدم الامعان في ايذاء المقاتلين ومع هذا فان الاسلام غيّر كثيراً من طباع خالد وألان من شدته فلم تبدر منه في حروب فارس والروم أدنى بادرة تؤخذ عليه

﴿ باب ﴾

﴿ اسلامه وصحبته ﴾

(اسلامه)

اختلف في وقت اسلام خالد فقال بعضهم انه أسلم سنة ثمان للهجرة وقال بعضهم سنة خمس وقال بعضهم سنة سبع وهو الاصح فقد كان اسلامه

بعد الحديبية وكانت عمرة الحديبية في ذي القعدة سنه ست وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وعمرو بن العاص وطلحة بن أبي طلحة العبدرى في صفر فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه: رمتكم مكة بأفلاذ كبدها:

(صحبته)

لما أسلم خالد أنفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جيش من المسلمين أميره زيد بن حارثة الى مشارف الشام من أرض البلقاء لغزو الروم وكانت لهم هناك وقعة مؤتة العظيمة التي استشهد فيها زيد ثم أخذ الراية بعده جعفر بن أبي طالب فاستشهد أيضاً ثم أخذها عبد الله بن رواحه فقتل أيضاً ثم اتفق المسلمون على دفع الراية الى خالد بن الوليد فأخذها وقاتل بها قتالا شديداً حتى اندق يومئذ في يده سبعة أسياف ثم ما زال يدافع القوم حتى انحازوا عنه ثم عاد بجيش المسلمين

وفي هذه الغزوة سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفاً من سيوف الله وذلك انه أوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن قتل من الامراء فصعد يومئذ المنبر وأعلم بقتل زيد وجعفر وابن رواحة وقال، ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد وفتح الله عليه ومن ثم سمي خالد سيف الله

وكان خالد من حين اسلم يوليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أعنة الخيل فيكون في مقدمتها في محاربة العرب وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم فتح مكة وأمره يومئذ ان يدخل من أسفل مكة من الليط ومعه أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب وهو أول يوم أمّر رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد

وكان عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو قد جمعوا

ناساً بالخندمة ليقاتلوا ومعهم الاحابش وبنو بكر وبنو الحرث بن عبد مناة فلقيهم خالد فقاتلهم فهزمهم بعد ان قتل منهم ثلاثة عشر رجلا

ولما فتحت مكة واذل الله قريشاً لرسوله وقد كانوا أشدّ العرب عداوة له وايذاء لاصحابه ووقوفاً دون دعوته بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو من حول مكة من العرب الى الاسلام وكان فيمن بعث خالد بن الوليد بعثه الى بني جذيمة داعياً لا مقاتلا فذهب فقاتلهم وقتل منهم فلما انتهى الخبر الى النبي صلى الله عليه وسلم رفع يديه الى السماء ثم قال (اللهم انى ابرأ اليك مما صنع خالد) ثم أرسل علياً ومعه مال فودى لهم الدماء والاموال ثم جاء خالد الى النبي صلى الله عليه وسلم واعتذر وقال ان عبد الله بن حذافة السهمي أمرني بذلك عن رسول الله

وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى العزّى ببطن نخلة وكان بيتاً عظيما لمضر تعظمه قريش وكنانة ومضر كلها وكان سدنتها بنو شيبان من حلفاء بني هاشم فهدمها خالد وقال

ياعزّ كفرانك لاسبحانك — انى رأيت الله قد أهانك

وكان خالد على مقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين في بني سليم فجرح خالد فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفث فى جرحه فبرئ وأرسله أيضاً الى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل فأسره وأحضره عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فصالحه على الجزية ورده الى بلده ، وأرسله أيضاً سنة عشر الى بني الحارث بن كعب بن مذحج بنجران وأمره ان يدعوهم الى الاسلام فان أجابوا يقيم فيهم ويعلمهم شرائع الاسلام وان أبوا يقاتلهم فخرج خالد حتى قدم عليهم وبعث الركبان يضربون فى كل وجه ويدعون الناس الى

الاسلام فاسلم الناس ودخلوا فيما دعاهم اليه وأقام بينهم يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه وكتب بذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا ستأتي صورته فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يستدعيه ومن يريد الوفود معه من القوم فاقبل وأقبل معه الوفد وفيهم قيس بن الحصين بن يزيد بن قنان ذي الغصة ويزيد بن عبد المدان ويزيد بن المحجل وغيرهم

ولم يزل خالد مدة صحبته يجاهد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكافح اعداء الاسلام ويحرص على رضاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له بعد من جميل الأثر في قتال اهل الردة وفتوح البلدان العظيمة ما رأيت في سيرة أبي بكر ونتلوه عليك الآن ملخصاً من تاريخ حروبه في الاسلام

باب

حروب خالد وفتوحاته في عهد أبي بكر

(حروبه في الردة)

{ حربه مع طليحة }

تقدم ممنا في سيرة أبي بكر رضي الله عنه انه عقد لخالد وأمره بطليحة ابن خويلد فاذا فرغ سار الى مالك بن نويرة بالبطاح وكان أبو بكر بعث عدي ابن حاتم[1] الطائي قبل خالد الى طيء واتبعه خالداً وأمره ان يبدأ بطيء ومنهم

(١) هو عدي بن حاتم الجواد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فألقى له وسادة وأجلسه عليها وجلس هو على الارض فأسلم وسر باكرام رسول الله له سروراً عظيما وكان له في أيام الردة أحسن الأثر رضي الله تعالى عنه

يسير الى طليحة ببزاخة ويثلّث بالبطاح حيث يقيم مالك بن نويرة بقومه وان لا يبرح اذا فرغ من قوم حتى يستأذنه

سبق عديّ خالداً الى قومه ودعاهم فاجابوه وقالوا له استقبل جيش خالد وأخره عنا حتى نستخرج مَن عند طليحة منا لئلا يقتلهم فاستقبل عديّ خالداً واخبره بالخبر فتأخر خالد وأرسلت طيّء الى اخوانهم عند طليحة فلحقوا بهم ولما عزم خالد على قصد جديلة[1] استمهله عديّ عنهم ايضاً ولحق بهم يدعوهم الى الاسلام فاجابوه فعاد الى خالد باسلامهم ولحق بالمسلمين الف راكب منهم كل هذا بهمة ذلك الشهم الكبير عديّ بن حاتم رضى الله تعالى عنه حتى قيل يومئذ عنه انه خير مولود في أرض طيّء وأعظمه بركة عليهم

ولما عزم خالد بن الوليد على قصد طليحة أرسل عكاشة بن محصن وثابت ابن أقرم الانصاري طليعة فلقيهما حبال أخو طليحة فقتلاه فبلغ خبره طليحة فخرج هو وأخوه سلمة فقتلا عكاشة وثابتاً واقبل خالد بالجيش فرأى عكاشة وثابتا قتيلين فجزع لذلك المسلمون وانصرف بهم خالد نحو طيّء فقالت له طي نحن نكفيك قيساً فان بني أسد حلفاونا فقال قاتلوا أيّ الطائفتين شئتم فقال عديّ بن حاتم لو نزل هذا على الذين هم أسرتي الادنى فالادنى لجاهدتهم عليه والله لا أمتنع عن جهاد بني أسد لحلفهم فقال خالد ان جهاد الفريقين جهاد لا تخالف رأي أصحابك وامض بهم الى القوم الذين هم لقتالهم أنشط وقد أصاب خالد بهذا الرأي ورضي به عديّ ثم سار جيش المسلمين على تعبية الى بزاخة حيث التقى بطليحة ومن معه ونشب القتال بين الفريقين وكان مع طليحة عيينة بن حصن في سبعمائة من بني فزارة فقاتلوا قتالا شديداً حتى اذا اشتدت

(١) جديله بطن من طيّء

عليهم وطأة الحرب وزعزعتهم صدمات المسلمين كرّ عيينة على طليحة وسأل هل أوحي اليه بشيء ؟ قال لا فتركه وذهب وقاتل ثم عاد فقال له لا ابالك فهل جاءك جبريل ؟ قال لا فقال عيينة حتى متى قد والله بلغ منا ثم رجع فقاتل ثم كرّ على طليحة فقال هل جاءك جبريل؟ قال نعم قال فماذا قال لك قال قال لي ان لك رحى كرحاه وحديثاً لا تنساه فقال عيينة قد علم الله انه سيكون حديث لا تنساه انصرفوا يا بنى فزارة فانه كذاب فانصرفوا وانهزم الناس وكان طليحة قد أعد فرسه وراحلته لامرأته النوار فلما غشوه ركب فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها وقال يا معشر فزارة من استطاع أن يفعل هكذا وينجو بأمرأته فليفعل ثم انهزم ولحق بالشام ونزل على كلب فلما بلغه أنّ أسدا وغطفان قد أسلموا اسلم وبقى فى كلب حتى توفى أبو بكر رضى الله عنه واستخلف عمر فأتى اليه وبايعه ثم حضر بعدذلك فتوح نهاوند وكان من الشجعان المشهورين وأبلى فى حروب فارس بلاء حسناً وفيها استشهد

هكذا انقضى أمر طليحة كما انقضى أمر غيره من المتنبئين الكذابين وهيهات للباطل ان يقوم فى جانب الحق وللكذب ان يغلب على الصدق (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق)

لما انهزم جند طليحة اجتمع الفلّ من غطفان وسليم وهوازن وغيرهم على امرأة اسمها أم زمل من بنى فزارة فأمرتهم بقتال المسلمين فلما بلغ خالداً الخبر سار اليها بجيشه وقاتلها ومن اجتمع معها قتالا شديداً فقتلت وتفرق جمعها

حادثة مالك بن نويرة

ثم قصد خالد مالك بن نويرة وكان كما تقدم معنا فى سيرة أبى بكر

رضي الله عنه متحيراً يقدم للردة قدماً ويؤخر أخرى وكان رؤساء تميم كلهم قدموا بالصدقات على أبي بكر كالزبرقان وصفوان بن صفوان ووكيع بن مالك وغيرهم الاّ مالك بن نويرة بقي متردداً حتى اذا بلغه مجيء خالد ندم على ما فعل وفرق قومه فى البطاح ونهاهم عن الاجتماع وقال لهم يا بنى يربوع انّا دعينا الى هذا الامر فأبطأنا فلم نفلح وقد نظرت فيه فرأيت الامر يتأنى لهم بغير سياسة واذا الامر لا يسوسه الناس فاياكم ومناواة قوم قد صنع لهم فتفرقوا وادخلوا فى هذا الامر

ولما أراد خالد قصد البطاح تخلفت عنه الانصار وقالوا قد عهد الينا الخليفة ان نحن فرغنا من بزاخه أن نقيم حتى يأتينا أمره فقال خالد قد عهد اليّ أن أمضي وأنا الامير ولو لم يأت اليّ كتاب بما رأيته فرصة وكنت ان أعلمته فاتتنى لم أعلمه وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد لم ندع ان نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل فأنا قاصد الى مالك ومن معى ولست أكرههم

ولقد صدق خالد فيما قال لو لم يكن فى تعجيله بأمر مالك مالاتحمد عقباه لهذا امتنع الانصار عن المسير معه ثم لما سار ندموا وقالوا ان أصاب القوم خيراً حرمتموه وان أصيبوا ليجتنبنكم الناس فلحقوه ولما قدم خالد البطاح بث السرايا وأمرهم بداعية الاسلام وان يأتوه بكل من لم يجب وكان قد أوصاهم أبو بكر (ان يؤذنوا اذا نزلوا منزلا فان أذن القوم فكفوا عنهم وان لم يؤذنوا فاقتلوا وانهبوا وان أجابوكم الى داعية الاسلام فسائلوهم عن الزكاة فان أقروا فاقبلوا منهم وان أبوا فقاتلوهم)

لما بث خالد السرايا جاءته الخيل بمالك بن نويرة فى نفر من ثعلبة بن يربوع فاختلفت السرية فيهم وكان فيهم أبو قتادة فكان فيمن شهد انهم

أذنوا فلما اختلفوا أمرهم خالد فحبسوا في ليلة باردة فأمر خالد مناديا فنادى دافئوا أسراكم وهي في لغة كنانة القتل فظن القوم انه أراد القتل ولم يرد الا الدفء فقتلوهم فقتل ضرار بن الازور مالكا وسمع خالد الواعية فخرج وقد فرغوا منهم فقال اذا أراد الله أمراً أصابه وتزوج خالد أم تميم امرأة مالك

ولما انتهى الخبر الى أبي بكر وعمر رغب عمر الى أبي بكر أن يستدعي خالداً ويقتص منه وكان عمر رضي الله عنه شديداً يحب تعجيل العقوبة وأبو بكر يحب الاناة وعدم التعجيل في العقوبة ولما ألح عمر على ابي بكر بشأن خالد قال يا عمر تأول خالد فاخطأ فارفع لسانك عن خالد فاني لا أشيم سيفاً سله الله على الكافرين، وكتب الى خالد ان يقدم عليه ففعل ودخل المسجد وعليه قباء وقد غرز في عمامته أسهماً فقام اليه عمر فنزعها وحطمها وأسمعه كلاما أليما فلم يكلمه ودخل على أبي بكر وأخبره بجلية الخبر واعتذر اليه فقبل عذره وودى مالكا من بيت مال المسلمين

ولا يخفى أن قتل مالك بن نويرة اذا صح ان سببه سوء فهم كما تقدم فخالد غير مسؤل عن دمه هذا اذا صح انه أظهر الاسلام حين رأى جيش المسلمين الا ان تردده في الامر من بدء الردة يدل على أن الرجل لم يخلص للاسلام والا لكان تابع بقية سادات تميم بارسال الصدقة الى أبي بكر ولم يبطئ الى حين وصول جند المسلمين اليه وهذا أعظم عذر يمكن أن يعتذر به عن خالد بن الوليد رضي الله عنه فيما لو كان قتل مالك مقصوداً أو معجلا به من قبل خالد بن الوليد ولولا ذلك لكان قتله لمالك ثلمة في تاريخه لا يسدها الا جهاده العظيم في فتوح العراق والشام

﴿ حربه مع مسيلمة ﴾

تقدم الكلام عما أصاب عكرمة بن أبي جهل في تعجيله بحرب مسيلمة قبل أن يصل اليه شُرحبيل بن حسنة ولما انتهى الخبر بذلك الى أبي بكر كتب الشرحبيل بالتربص وأتبعه خالد بن الوليد بعد مجيئه الى المدينة واعتذاره عن قتل مالك بن نويرة وأوعب معه المهاجرين والانصار فتقدمهم الى البطاح ولما تكاملت عدتهم سار بهم الى قصد مسيلمة فبادر شرحبيل خالداً بقتال مسيلمة فنكب فلامه خالد على تعجيله ولما بلغ مسيلمة دنو خالد عسكر بعقرباء باربعين الف مقاتل وقيل بستين الفاً وخرج اليه الناس وخرج مجاعة بن مرارة في سرية يطلب ثاراً لهم في بني عامر فأخذه المسلمون وأصحابه فقتلهم خالد واستبقاه لشرفه في بني حنيفة

ثم ان مسيلمة ترك الاموال وراء ظهره وتقدم اقتال المسلمين وقام ابنه شرحبيل يحرض بني حنيفة على القتال وينفض يديه من نبوة أبيه قائلا لهم ، يا بني حنيفة اليوم يوم الغيرة قاتلوا عن احسابكم وامنعوا نساءكم ، فنشبت الحرب ودارت بينهم وبين المسلمين رحى الطعن والضرب واشتدّ القتال ولم يلق المسلمون حربا مثلها قط حتى نزعوا الى الهزيمة وانكشفوا عن فسطاط خالد ثم تداعوا واقتحم أهل النجدة منهم كزيد بن الخطاب وثابت بن قيس وغيرهما صفوف العدو وحمل خالد بالناس حتى ردوا الاعداء الى أبعد مما كانوا واشتدّ القتال وتذامرت بنو حنيفة وتراموا على الموت وقاتلوا قتالا شديداً والمسلمون صامدون حتى قتل من أولى البصائر منهم ناس منهم زيد بن الخطاب القرشي وأبو حذيفة وسالم مولاه وأضرابهم

لما رأى خالد ما الناس فيه خشي من أن ينهزم اخلاط العرب فتختل

صفوف المسلمين ويساق معهم أهل النجدة من الانصار والمهاجرين فنادى في الناس ان امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كلّ حيّ ولنعلم من أين نؤتي . فامتازوا ولما امتازوا قال بعضهم لبعض اليوم يستحى من الفرار وحينئذ ظهر انّ القتل في المهاجرين والانصار وأهل القرى أكثر من البوادى وعلم خالد ان الحرب لا تركد الا بقتل مسيلمة فطلبه للبراز فبرز اليه فعرض عليه أشياء فبينما هو يتظاهر بمشاورة شيطانه ركبه خالد فانهزم امامه فصاح خالد بالناس فركبوا القوم فانهزموا وقالوا لمسيلمة أين ما كنت تعدنا فقال قاتلوا عن احسابكم ونادى مناديهم يابني حنيفة الحديقة الحديقة فدخلوها واغلقوا عليهم بابها

فجاء أحد أبطال المسلمين الانجاد وهو البراء بن مالك وقال يامعشر المسلمين القوني عليهم في الحديقة فاحتمل حتى أشرف على الجدار واقتحمها عليهم وقاتل على الباب حتى فتحه فدخلوها عليهم واقتتلوا أشد قتال ولم يزالوا كذلك حتى قتل مسيلمة واشترك في قتله وحشي مولى جبير بن مطعم ورجل من الانصار ولما علم بقتله بنو حنيفة ولوا الادبار فاخذهم السيف من كل جانب

كان مجاعة بن مرارة اسيراً مع خالد كما قدمنا فقال لخالد بعد انكسار بني حنيفة هلمّ الى الصلح على ماورائي فصالحه على كل شيء دون النفوس فانطلق ليشاور القوم فلم يجد في الحصون الاّ النساء والصبيان ومشيخة فانية وبعض رجال ضعاف فألبسهم الحديد وأمرهم ان يشرفوا من الحصون ثم عاد الى خالد وقال له قد أبوا ان يجيزوا ماصنعت . وكان قصده بهذا ايهام خالد لاجل ان يأخذ الامان للرجال ويصالح خالدا على السبي وقد نجح بهذه الخدعة اذ رأى المسلمون ان يعودوا على ظفر بعد ان نهكهم طول الالقاء فصالحه خالد على الفضة والذهب وربع السبي وقيل نصفه وانتهى الامر

وقد ظهر من المسلمين في هذه الحرب من الثبات والنجدة والصبر على المكروه مالم يظهر من جيش قط راستحرّ القتل في المهاجرين والانصار يومئذ وقتل من القراء جمع وهذا مادعا أبا بكر وعمر للمبادرة الى جمع القرآن كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب

ومن مكائد خالد وحسن بصيرته في هذه الحرب أمره للمسلمين بأن يمتاز الاحياء والقبائل بعضهم عن بعض لما اشتدت عليهم وطأة الحرب ليظهر أهل البلاء منهم ويستحي الناس من الفرار فيقاتلوا حتى الموت وقد فعلوا وشتتوا شمل ذلك الجيش العظيم بقوّة اليقين وحسن تدبير خالد بن الوليد فرضي الله عنه وعنهم أجمعين

باب

فتحه العراق وحروبه فيه

في المحرم من السنة الثانية عشرة للهجرة بعد فراغ خالد من اليمامة أمره أبو بكر بالتوجه الى العراق وقد تقدم معنا ذكر مسير خالد وفتوحه في العراق في سيرة أبي بكر ونحن ذاكرون هنا طرفا من أهم أخباره في حرب اهل العراق مما لم يذكر بالتفصيل من قبل فنقول

وقعة الحفير

اول وقائع خالد بن الوليد في العراق وقعة الحفير قرب خليج البصرة وكان اسم صاحبها هرمز فبرز الى خالد بجيشه مقترنين بالسلاسل كي لا يفروا فطلبه خالد للبراز فبرز اليه ولم يتجاولا الا قليلا حتى احتضنه خالد فحمل عليه

أصحابه فما شغله ذلك عن قتله وحمل القعقاع بن عمرو بالمسلمين فازاحوا الفرس وركبهم المسلمون فهزموهم وأخذ خالد سلب هرمز وكان على رأسه قلنسوة الامارة أو الشرف وكان قد تم شرفه ومن عادة الفرس اذا تم شرف الانسان ان تكون قلنسوته بمائة الف

﴿ كلمة على الالقاب والرتب ﴾

هكذا قال المؤرخون بشأن هذه القلنسوة والظاهر ان القلنسوة كانت عند الفرس من شعار الشرف يعلو ثمنها وينخفض بنسبة شرف صاحبها في الدولة وهي من قبيل الرتب والالقاب التى أحدثت بعدُ فى دول الاسلام وأول من أحدثها العباسيون أخذاً عن الاعاجم وذلك كالمنصور والمهدى مثلا في القاب الخلفاء ونظام الملك في الوزراء وشرف الدولة وعز الدولة فى الامراء وما لا يحصى من الالقاب والنعوت التى وصلت في القرون الوسطى الهجرية قرون الجهل والعتو والجبروت قرون الضعف والانحلال الى درجة تشمئز منها النفس ويأباها عقل الحكيم ومن أراد أن يرى شيئاً منها فليراجع تواريخ ملوك الطوائف من الدول التركية والايوبية والجركسية خصوصاً في المنشورات التي كانت تصدر اليهم من ديوان الخلافة ليرى كيف كانت ترص الالقاب والنعوت لامراء وملوك ما أجدهم بقول الشاعر الاندلسى الحكيم

القاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

ولا جرم ان توفر تلك الالقاب والنعوت في الدول من نتائج التطلع الى المجد الباطل والاعراض عن المجد الحقيقي والشرف الذاتي ومنشأ هذا أمران (فقد التربية وانحلال الدول)

أما فقد التربية فلأنه يضعف قوّة الارادة ويذهب بآثار العلم ويقضي

على حب الفضيلة فيميل بالناس الى الخمول ويتنكب بهم طرق الفضائل فيصابون بفتور الهمم وانحلال العزائم فيقعد بهم ذلك عن تناول الشرف الذاتي من طرق الجد والعمل . ويدعوهم الى طلب المجد الباطل من طرق الرياء والمداهنة والتحيل والكسل ، وغير ذلك من الامور التي تدل على فقد الشمم وموت العواطف وانحطاط ملكات العمل والعلم وقصاراها ضعف الأمم وتدرجها في مدارج التدني والانحطاط حتى آخر درجة من الهبوط الى هوّة الدمار والفناء حيث يبدأ غيرها بالصعود ممن كان ينازعها البقاء وهكذا كان الشأن مع الفرس والعرب لما نازعهم هؤلاء البقاء وغلبوهم عليه مع حداثة ظهورهم في الدولة والملك (وتلك الأيام نداولها بين الناس)

وأما انحلال الدول فلانه يحل عرى الألفه وتتناكر به القلوب وينفضّ الناس من حول الامير لضعف أمره فيهم أو تعسفه بالحكم عليهم فيحتال لاجتذاب قلوب أفرادهم ويتألفهم تارة بالرشا وتارة بمنح الالقاب وضخامة التشريف بشارات الدولة فتفسد بذلك اخلاقهم وتغتر بمظاهر المفخمة الكاذبة نفوسهم فيتطلعون الى رتب الدولة والقاب التشريف الباطلة وهكذا كان الشأن لما انحل أمر الخلافة العباسية في بغداد والفاطمية في مصر وابتدع الخلفاء من القاب التشريف الكثيرة مايتألفون به قلوب الناس ويجتذبون اليهم افئدة الامراء المتوثبين على الملك الغالبين على أمر الخلافة ولكن لم يغن ذلك عن سقوط خلافتهم وانحلال دولتهم و (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم)

ومن هذا تعلم مقدار الفساد الذي دخل على الدول الاسلامية من طريق التقليد للاعاجم في أمور كثيرة أفسدت اخلاق الامة وأدخلت الوهن على أصول التربية الاسلامية التي تأسست عليها دولة الخلفاء الراشدين ومن بعدهم

من الامويين وأخصها ترفع تلك الدول عن السفاسف وتطلع الناس في عهدها الى أعلى مراقي المجد التي لا يبلغها الا ذوو الشمم والجد الآخذون بنواصي الحكمة السالكون مسالك الرجولية المعرضون عن الاغترار بزخارف المجد الباطل حتى لقد كان الخلفاء لا يخاطبون بغير أمرة المؤمنين ولا يخاطبون أمراءهم وولاتهم بالكنى والالقاب بل هم كانوا لا يعرفون لها اسما ولا يقيمون لها وسما وقد اقتدى بهم في هذا العصر أعظم الدول جداً وقوة وغنى وثروة وهي جمهورية امركا الشمالية التي حرم في دولتها ايجاد الشارات والرتب وأعرضت عن أمثال تلك الالقاب الكاذبة والسفاسف المضرة بالاخلاق والتربية فنشط سكان تلك المملكة العظيمة الى السعي وراء المجد الحقيقي المتأتي عن العمل والعلم حتى بلغوا مكانا من المجد والقوة تحسدهم عليه كل دول الارض الآن ولله في خلقه شؤون وللسعادة والشقاء سبيلان يسلك الاول منهم العاقلون والثاني الجاهلون

﴿ وقعة الثني وما بعدها ﴾

لما اجتمع خالد بهرمز في الحفير أرسل الثاني كتابا الى كسرى يستمده فأمده بجيش عظيم بقيادة قائد اسمه قارن فلما انتهى الجيش الى المذار لقي المنهزمين من جيش هرمز فاجتمعوا ورجعوا الى الثني وهو النهر وسار اليه خالد وقاتلهم فهزمهم وقتل وسبي وكان في السبي يومئذ ابو الحسن البصري الشهير وكان نصرانياً وأمر خالد على الجند سعيد بن النعمان وعلى الحرز سويد بن مقرن وأمره بنزول الحفير وأقام يتجسس أخبار العدو فعلم أن كسرى ازدشير بعث اليه بجيش بقيادة الاندرز عز جله من العرب الضاحية والدهاقين فسار اليهم خالد ووضع لهم كمينا فالتقوا عند الولجة ولم تلبث ان نشبت بينهم الحرب حتى خرج

الكمين على العدو وأحاطوا به احاطة السوار بالمعصم فقتل منهم من قتل وانهزم من انهزم ومات قائدهم الاندرزغر عطشا في الفلاة

أصيب في هذه الواقعة كثير من نصارى بكر بن وائل فاستنفروا اخوانهم واستمدوا أزدشير فأمدهم ببهمن جاذويه وكان بقشيناثا وأمره بالقدوم على نصارى العرب بالليس فقدم امامه قائداً اسمه باجان وأمره بالتوقف ليذهب ويشاور أزدشير فيما يفعل فوجده مريضاً فتربص عنده

وأما باجان فاجتمع عليه نصارى عجل وتيم اللات وضبيعة وجابر بن بجير وعرب الضاحية فسار اليهم خالد وكانوا على طعامهم فعاجلهم عنه فقاموا للحرب فهزمهم شر هزيمة واكثر فيهم القتل والاسر

ثم بعد هذه الوقعة قصد خالد الحيرة وحمل الاثقال بالنهر ولما بلغها صالحه أهلها بعد مناوشات خفيفة وقد تقدم من خبرها في سيرة أبي بكر ما فيه الكفاية ، وكان فتح الحيرة في شهر ربيع الاول من سنة اثنتي عشرة وكتب لهم خالد كتابا بذلك

ولما انتهى خالد من أمر الحيرة أتته الدهاقين من النواحي فصالحوه على ما بين الفلاليج الى هرمز جرد على الفي ألف وقيل ألف ألف سوى ما كان لآل كسرى وبعث خالد عماله ومسالحه وبث عيونه وأرصاده وأرسل السرايا فمخروا دجلة الى أرض فارس وأرسل خالد كتبه الى ملاك فارس ومرازبتها يدعوهم الى الاسلام وفي غضون ذلك هلك كسرى وعاد أمر الفرس الى الاضطراب يولون ملكا ويعزلون آخر شأن الامم اذا انحلت رابطتها والدول اذا انتكث فتلها وأذن الله بانصرام أجلها

وبينما الفرس فى شاغل الاضطراب أخذ خالد يتم فتح العراق فسار الى الانبار

وكان بها شيرزاد فخرج لقتاله فلم يفلح وطلب المصالحة فصولح وخرج الى بهمن جازويه ناجيا بنفسه ثم صالح خالد من حول الانبار واستخلف عليها الزبرقان ابن بدر وسار الى عين التمر فاستقبله عاملها للفرس مهران بن بهرام جوبين بجند عظيم من العجم وعقة بن أبي عقة بجمع كثيف من العرب من النمر وتغلب واياد فتقدم العرب لمصادمة خالد فهجم خالد ذلك البطل الصنديد على عقة وهو يقيم صفوفه فاحتضنه كما يحتضن الباشق العصفور وأخذه اسيراً فانهزم العرب بدون قتال وتبعهم بالهزيمة مهران بجنود الفرس وتحصن من في الحصن أما خالد فنازلهم وافتتحه وسبي من فيه فكان من جملة السبي سيرين بن محمد بن سيرين ونصير أبو موسى بن نصير فاتح الاندلس بعد وروى بعضهم ان نصيراً عربي من أراشة من بلي سبي في أيام أبي بكر فاعتقه بعض بنى أمية فصار الى الشام وولد له موسى بقرية هناك تسمى كفر مري

ومنها سار خالد الى دومة الجندل حيث كان يقيم على حصارها عياض ابن غنم الذي أمره أبو بكر أن يأتي العراق من أعلاه وخالد من أسفله فخرج الجودي صاحب دومة الجندل الى خالد بطائفة من قومه وأرسل الى قتال عياض طائفة أخرى فدحر الطائفتان في آن واحد وأخذ المسلمون الحصن ومن فيه

ثم كانت بعد ذلك وقعة الحصيد والخنافس ومضيح البرشاء والثنى والزميل وكانت آخر وقائعه بالفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة فاجتمعت عليه هناك جنود الروم والعرب وفارس وقاتلوه فقاتلهم ومزق جموعهم ثم أمر بالرجوع الى الحيرة لخمس بقين من ذى القعدة وسار هو الى مكة فحج وعاد ولحق بساقة الجيش قبل وصوله الى الحيرة على ما رواه المؤرخون

كانت هذه الحرب آخر حروب خالد التي أصلى الفرس والعرب في العراق نارها وقضى على ملك الفرس اذ مهد السبيل الى تدويخ فارس وإزالة دولة الاكاسرة وقد كانت أعظم الدول حينئذ شأناً وأرقاها مكاناً الآ انها بلغت من الكبر عتياً ، ومن فشل السياسة مكاناقصياً ، فجاءها جند الاسلام بادي الشباب ناعم الإهاب فأسس ملكه الجديد في تخوم بلادها لينساح فى احشائها ، وينشر دعوة الاسلام في ارجائها ، ويقضي قضاءه على الوثنية وأهلها والشرك وبنيه فتتوحد كلمة الأمم فى السياسة واللغة والدين وينصر الله حزبه (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

قد كانت حروب العراق ايام خالد أشد ما لقي المسلمون من حرب الفرس لاجتماع قبائل العرب فى العراق وجند فارس على حرب المسلمين حتى لقد كان أهل العراق ايام علي اذا بلغهم عن معاوية شيء يقولون نحن أصحاب ذات السلاسل ويسمون ما بينها وبين الفراض ولا يذكرون ما بعد الفراض احتقاراً للذى كان بعدها

﴿ امراء خالد وقواده ﴾

ممن كان له البلاء الحسن في فتوح العراق مع خالد بن الوليد من أمراء الجند الذين كان يبعث معهم بالسرايا يدعون الى الاسلام أو الجزية ويقاتلون من امتنع عن قبول احدى الخصلتين . المثنى بن حارثة الشيباني وبشير بن سعد الانصاري وحنظلة بن الربيع التميمي المعروف . ظلة الكاتب والنسير بن دسيم ابن ثور وجرير بن عبد الله البجلي وضرار بن الازور وضرار بن الخطاب والقعقاع بن عمرو وعتيبة بن النهاس وغيرهم من أهل النجدة والباس ، والاربعة الاخيرون كانوا من أمراء الثغور

﴿ جغرافية العراق ﴾

قالوا سمي العراق عراقا تشبيهـا له بعراق القربة وهو الخرز الذي من اسفلها وهو على ضفتي دجلة ويحد العراق شمالا الجزيرة وكردستان ، وشرقا بلاد العجم وجنوبا خليج العجم المسمى (أيضاً بحر فارس) والبادية ، ويفصل العراق عن الجزيرة بخط مفروض من فلوجة على الفرات بقرب الانبار الى بغداد ومن ثم على شرقي دجلة الى مصب نهر الزاب الاصغر فيها ويفصل بينه وبين بلاد فارس سلسلة جبال خوزستان الممدة جنوبا من جبال كردستان

وكان العراق من قديم الزمان من مواطن العرب من بكر بل كلّ الجزء الواقع بين دجلة والفرات وهو العراق والجزيرة كان قبل الاسلام من مواطن العرب من ربيعة وبكر وبطونها وكانت للعرب دولة في العراق وهي دولة المناذرة تدفع الاتاوة الى الفرس كما كان لهم دولة في الشام وهي الدولة الغسانية تدفع الاتاوة الى الروم فلما جاء الاسلام قضى على دولتي المناذرة وغسان كما قضي على دولتي الروم والفرس

﴿ باب ﴾

(سفره الى الشام وحروبه فيها)

تقدم معنا في سيرة أبي بكر رضى الله عنـه ان جنود المسلمين في الشام اجتمعوا في اليرموك وأخذوا يطاولون العـدو ويطاولهم وكتبوا الى أبي بكر يستمدونه فكتب أبو بكر الى خالد بن الوليـد ان يسير بنصف النـاس الى الشام ويستخلف على النصف الآخر المثنى بن حارثة الشيباني فصـدع خالد بالامر وسار في ربيع الاول ويقال في ربيع الآخر سنة ١٣ وكان مسيره من الحيرة على قول بعضهم وبعضهم قال انه سار من عين التمر ولما سار استخلف

على العراق المثنّى بن حارثة الشيباني وقال له (ارجع رحمك الله الى سلطانك فغير مقصّر ولا وان)

وقد كان المثنّى استأذن أبا بكر بحرب من حوله من الفرس كما قدمنا فأذن له وولاه جند العراق ثم أرسل خالداً الى العراق وأمر المثنّى بالسمع والطاعة له ولما سار خالد الى الشام عادت امارة الجند الى المثنّى وكان خير كفؤ لها بعد خالد بن الوليد

سار خالد بمن معه من جند الاسلام وكانوا ستة آلاف على رواية بعضهم وتسعة على رواية البعض الآخر وقال بعضهم ان أبا بكر أمره ان يأخذ معه أهل النجدة فسار بخسمائة ولعل الرواية الاولى أصح وأغار في طريقه على جمع من تغلب وكلب على ماء يسمى قراقر ومن ثم أخذ بجيشه طريق المفازة مع خطر المسير فيها لفقد الماء منها وقال له الدليل واسمه رافع بن عميرة الطائي انك لن تطيق قطع المفازة بالخيل والاثقال فقال لابد لى من ذلك لأخرج من وراء جموع الروم ، واحتاط لقطع المفازة بأن أمر صاحب كل جماعة ممن معه بأخذ الماء للشبعة لخمس وان يعطش من الابل الشرف ما يكتفي به ثم يسقوها عللا بعد نهل والعلل الشربة الثانية والنهل الاولى ثم يصروا آذان الابل ويشدوا مشافرها لئلا تجتر ثم ركبوا من قراقر فلما ساروا يوماً وليلة شقوا العدّة من الخيل بطون عشرة من الابل فمزجوا ما فى كروشها بما كان من الالبان وسقوا الخيل ففعلوا ذلك أربعة أيام وفي اليوم الخامس انتهوا الى سوى فأغار خالد على جمع من بهراء ثم أتى أرك ثم أتى تدمر فتحصن أهلها ثم صالحوه ثم أتى القريتين (١)

---

(١) تدمر قد أصبحت الآن بعد مجدها القديم قرية يحيط بها جماعة العرب الرحل ولكن لم يزل هيكلها المشهور قائماً ينطق بما بلغته من العظيمة في قديم الزمان وبينها وبين

فقاتل أهلها فظفر بهم ثم فعل مثل ذلك بحوّارين

وروي الطبري انه سار منها الى قصم وقاتل بني مشجعة ثم سار الى ثنية العقاب [1] قرب دمشق ناشراً رايته وهي راية سوداء وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبها سميت الثنية ثم سار فأتى مرج راهط [2] فأغار على غسان يوم فصحهم وأرسل بسر بن أبي ارطاة وحبيب بن مسلمة الفهري من قريش فأغارا على قرى الغوطة ثم سار خالد ونزل بالجابية وقيل بالباب الشرقي من دمشق فأخرج لهم بطريقها نزلاً وخدمةً وقال احفظ لى هذا العهد فوعده بذلك وكتب له به كتابا

ثم سار خالد من دمشق الى بصرى (من عمل حوران وهي الآن مركز حكومة قضاء) [3] فقيل انه وجد عليها أبا عبيدة بن الجراح وقيل وجد يزيد بن أبي سفيان فافتتحها وبعث باخماسها الى أبي بكر ثم سار فطلع على المسلمين في ربيع الآخر وقد اختلف المؤرخون في هل كان المسلمون في اليرموك (شمالى جبل عجلون) أم في اجنادين من عمل فلسطين فقال أبو جعفر الطبرى ان وقعة اجنادين كانت بعد اليرموك

دمشق الشام سبعة مراحل ويليها القريتين وهي على مرحلتين منها وقال ياقوت انها هي حوّارين التي مر عليها خالد وفيه نظر

(١) قال ياقوت وهي ثنية منرفة على غوطة دمشق يطأها القاصد من دمشق الى حمص اه ولعلها التي تسمى الآن الثنايا

(٢) هو المرج الواقع شرقي دمشق مما يلي الغوطة

(٣) القضاء في عرف الحكومة العثمانية هو مادون اللواء او متصرفية التي تجمع لرئاستها بضعة أقضية والمتصرفية مادون الولاية التي تجمع الى رئاسته بضع متصرفيات أو ألوية

وأورد البلاذري في فتوح البلدان خبر اجنادين قبل اليرموك وقال ان وقعة اجنادين كانت في جمادى الأولى أو جمادى الآخرة سنة ١٣ وان وقعة اليرموك كانت سنة ١٥ مع ان أكثر المؤرخين ومنهم ابن الاثير قالوا ان وقعة اليرموك كانت في سنة ١٣ وقد تقدم معنا تعليل ذلك الاختلاف في سيرة أبي بكر رضي الله عنه فلا حاجة الاعادة وانما نذكر هنا ما اعتمده معظم المؤرخين من ان واقعة اليرموك كانت قبل اجنادين وفيها التقى خالد بن الوليد بالمسلمين

قال بعض المؤرخين ان خالداً لما كتب اليه أبو بكر بقصد الشام أمره على جميع الجند وقال بعضهم بل أمره على جنده فقط والظاهر ان الرواية الثانية أصح لما ذكره ابن الاثير والطبري من ان خالداً لما انتهى الى المسلمين في اليرموك وجد الامراء متساندين كل أمير على جنده فرغب اليهم أن يؤمروه عليهم جميعاً فأمروه واليك البيان

لما اجتمع المسلمون في اليرموك كان عددهم سبعة وعشرين الفاً فيهم الف صحابي وكان الروم في مائة الف وفي رواية انهم كانوا في مائتي الف مقاتل وكان قتال المسلمين لهم على تساند كل أمير على جنده لا يجمعهم أمير ولا يخفى ما في هذا من الوهن واختلاف الرأي وتجزء القوّة بتجزء الامارة وتعددها ولما جاء خالد بن الوليد وحضر المعارك مع المسلمين رأى أن القتال على هذا الوجه غير مجد نفعاً مع كثرة العدوّ عديداً وعدةً وان لا بد في نيل الظفر من حزم الرأي واجتماع الكلمة وكان الروم يوماً قد تهيئوا للقتال الذي لم يكن بعده قتال وذلك لليلتين بقيتا من جمادى الاولى وقيل في جمادى الآخرة فأراد المسلمون الخروج اليهم متساندين فقام فيهم خالد فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي اخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم فان هذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وأنتم متساندون فان ذلك لا يحل ولا ينبغي وان من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون انه رأى من واليكم ومحبته : قالوا هات فما الرأي ؟

فأشار عليهم بأن يتناوبوا الامارة العامة وان يؤمروه عليهم في ذلك اليوم فأمروه وهم يظنون انها كخرجاتهم وان الامر يطول

من هذه الرواية نعلم ان خالداً لم يكن أميراً عاماً على الجيش وانما كان أميراً على جنده فقط ولو كان أميراً عاماً لما ترك الروم يطاولون فى القتال بل لدبّر الامر لدحرهم منذ وصوله الى اليرموك

لما تسلم خالد زمام القيادة العامة أخذ في تعبية الجيش تعبية لم تعب العرب مثلها قبل ذلك فجعل القلب كراديس وأقام فيها أبا عبيدة وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة والميسرة كذلك وعليها القعقاع ابن عمرو ويزيد بن أبي سفيان وجعل على كل كردوس رجلا من الشجعان وجعل على الطلائع قباث بن أشيم ولما تم له ترتيب الجيش على ذلك النمط خرج للعدو بأربعين كردوساً وأمر عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو فأنشبا القتال وأظهر الروم من البسالة وقوّة الجاش والصبر على الحرب ما كاد يزيل المسلمين عن مواقفهم وقاتل خالد بن الوليد وشجعان المسلمين قتالا عظيما امام فسطاس خالد حتى دحروا الروم فتضعضعوا ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم فانهزم فرسان الروم فافرج لهم المسلمون وأما الرجالة فالذي نجا نجا والذي قتل قتل وتم النصر للمسلمين بعد أن أصيب

منهم عدد غير قليل من سادات قريش وأقيال الصحابة كما أصيب بمثل هذا أشراف الروم الذين فضلوا الموت دفاعاً عن الحوزة على الفرار فقتلوا جميعاً

ولو أنصف الروم أنفسهم والمسلمين لقبلوا احدى الخصلتين (الاسلام أو الجزية) وكفوا جنودهم عناء الحرب مع قوم قد مهد الله لهم سبيل النصر على الامم بما يحملون من معجزات القرآن وآيات البيان المؤذنة بهدم أركان الظلم ومحو آثار السيطرة الجائرة التي امتد يومئذ على الناس رواقها وأخذت من الامم الخاضعه لسلطان الفرس والروم بخناقها ولكن انى ينصف قادة الشعوب وزعماء السيطرة اذا أحسوا بيد تمس جانب كبريائهم ، وتقلل من غلوائهم ، وتعين حدود سيطرتهم ، وتأخذ عن الاسترسال في الشهوات بأعنتهم ، وما قتل الامم ، وساق النفوس الى مصارع الهلكة ، وزعزع دعائم العمران في كل زمان ، الا هذه الفئة الجائرة التي انتحلت لأنفسها حق السيادة المطلقة على الاشخاص والنفوس وأذاقت الانسان أنواع الشقاء والبؤس

﴿ عزله عن الامارة ﴾

بينما كان المسلمون في ذلك اليوم المشهود أي يوم اليرموك فى أشد حالات الحرب واشتداد الطعن والضرب جاء البريد من المدينة ينعي وفاة أبي بكر ويخبر باستخلاف عمر بن الخطاب ومعه أمر بعزل خالد بن الوليد وتوسيد امارة الجيش العامة الى أبي عبيدة بن الجراح فكتم ذلك أبو عبيدة ريثما تم النصر للمسلمين هذا على رواية بعض للمؤرخين وعلى رواية بعضهم ان البريد جاءهم وهم على حصار دمشق ومن جعل واقعة اجنادين قبل اليرموك روى مجيء البريد وهم فى اجنادين والصحيح ان عزل خالد وتأمير أبي عبيدة انما جاءهم وهم على دمشق كما يظهر ذلك من كتاب عمر بن الخطاب لأبي

عبيدة كما ستراه مبسوطاً في خلافة عمر رضي الله عنه وروى الطبري ان أبا عبيدة كتم عن خالد خبر عزله ريثما فتح دمشق وكتب لاهلها عهدا فامضاه له وعلى أي حال كان فان خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه حضر بعد امارته هذه معظم فتوح الشام متطوعاً وقال بعضهم انه حضر بعض فتوح ارمينيا أيضاً وكان المسلمون يستمدون رأيه في الحروب ويقدمونه على أمرائهم ساعة الحاجة وكان أبو عبيدة يوليه الجيوش للفتح ولما فتح في امارة أبي عبيدة قنسرين التابعة لولاية حلب وانتهى الخبر بذلك الى عمر قال (أمّر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني)

وأما سبب عزله فأمران الامر الاوّل ما كان فى نفس عمر بن الخطاب عليه منذ قتل مالك بن نويرة والأمر الثاني وهو الأهم اقبال جند المسلمين على خالد بن الوليد وحبهم له واستماتتهم بين يديه في كل مشاهده في العراق والشام وذلك ليمن نقيبته في الحروب . وشجاعته التي أرهبت القلوب . وقد علم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك فخالج فؤاده شيء منه وخشي من اقبال الناس عليه لاسيما وان في نفس خالد من جهته ما في نفسه من جهة خالد منذ قرعه ذلك التقريع الشديد عقب حادث مالك بن نويرة لهذا بادر عمر رضي الله عنه الى عزله قبل ان يصل خبر توليه منصب الخلافة الى المسلمين وخالد أمير على جيش عظيم منهم وهذا الذي خالج نفس عمر بن الخطاب رضي الله عنه من جهة خالد بن الوليد لم يكتمه عنه بل أظهره اليه فقد روي انه استدعاه بعد عزله الى المدينة فعاتبه خالد فقال له عمر (ماعزلتك لريبة فيك ولكن افتتن بك الناس فخفت ان تفتتن بالناس) وهذا صريح في أن عمر رضي الله عنه خشي من أن تحدث خالداً نفسه بشيء فيشق عصا المسلمين وهو نظر سديد

ومرمى بعيد من عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الآ أنّ خالد بن الوليد وغيره من سادات قريش وأمراء المسلمين كانوا فى زمن أبي بكر وزمن عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما أبعد الناس عن الفتنة وألزمهم للطاعة لقرب العهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشدة حزم هذين الخليفتين فى السياسة ورهبتهما التي حلت فى القلوب وعدا هذا فان خالد بن الوليد لما مات أبو بكر زال من نفسه ما كان يجده على عمر فقد روى الطبري ان خالداً لما بلغه موت أبي بكر قال (الحمد لله الذي قضى على أبي بكر الموت وكان أحبّ الىّ من عمر والحمد لله الذي ولى عمر وكان أبغض الىّ من أبي بكر ثم ألزمني حبه) والظاهر ان ماخالج فؤاد خالد من حب عمر لمّا ولى الخلافة علمه فيما بعد عمر بن الخطاب لهذا لما عزله وقال له ماعزلتك لريبة فيك كتب بذلك الى الامصار دفعاً للتهمة عنه

وهي أحسن شهادة تحفظ كرامة خالد بن الوليد وتقدر قدر خدمته للاسلام والمسلمين وهو والله أجدر برفع الذكر وتشريف القدر فرضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين

وروي الطبري انعمر بن الخطاب لما عزل خالداً صادره على نصف ماله وذلك شأنه مع أكثر العمال كما سترى فى سيرته لانه كان يرى ان ما يجمعونه من المال انما هو حق المسلمين فينبغي أن يؤخذ منهم ويرد لبيت مال المسلمين

﴿ باب ﴾
(حزم خالد وتوفيقه فى الحرب)

قلّ ان يوجد قائد فى العالم يوفق الى النصر فى كل وقائعه كما وفق خالد

ابن الوليد رضي الله عنه فان التاريخ لم ينبئنا عن انخذاله ولا فى وقعة واحدة من وقائعه مع أهل الردة أو فى العراق والشام وهذا انما هو من نتائج الحزم والشجاعة والبصيرة بأمور الحرب فقد كان دائم اليقظة مراقباً لحركات العدو يترقب الفرص ويسدّد سهم الفكر الى الغرض البعيد فلا يخطئ مرماه وقد رأيت كيف فلّ جموع الروم فى اليرموك وكشف عن المسلمين سحب الضيق والحيرة مذ سلموا قيادهم اليه ، وجعلوا اعتمادهم في تدبير الحرب عليه ، مع انّ فيهم من الصيد الصناديد وأهل البصيرة والرأى يومئذ نفر أولو شهرة في الحرب في الجاهلية والاسلام كعمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح ويزيد ابن سفيان وأضرابهم من كماة الاسلام وقادة الجيوش العظام

وروي الطبري ان خالداً لما كان مع أبي عبيدة على حصار دمشق ترك الاعداء ليلةً مواقفهم على الاسوار لوليمة أعدها لهم البطريق فلم يعلم بذلك أحد من المسلمين الا خالد بن الوليد فانه كان لا ينام ولا ينيم ولما وقف على جلية الامر تقدم بنفسه مع نفر من ثقات أصحابه الى السور وصعد الى أعلاه بالسلاليم وكبّر فكبّر أصحابه واقتحموا الباب ففتحه لهم وكان النصر

ومن هذا التيقظ تعلم سر توفيقه في الحروب وانتصاره على الاعداء ونفاذ الرهبة من سطوته فى القلوب وحق والله لقائد مثله ان يخلّد ذكره على صفحات الزمان ويشاد له من جميل الاثر أعظم بنيان

﴿ باب ﴾

(كتبه)

١

كتب الى ملوك الفرس بعد تدويخ ملكهم في العراق يدعوهم الى الاسلام كتاباً هذه صورته

(أما بعد) فالحمد لله الذى حلّ نظامكم . ووهن كيدكم ، وفرق كلمتكم ، ولو لم نفعل ذلك كان شراً لكم ، فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجيزكم الى غيركم ، والاّ كان ذلك وأنتم كارهون على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة اه

٢

وكتب الى المرازبة والقواد كتاباً هذه صورته

(أما بعد) فالحمد لله الذى فض حدنكم ، وفرّق كلمتكم ، وكسر شوكتكم ، فاسلموا تسلموا والاّ فاعتقدوا فيّ الذمة وأدوا الجزية والاّ فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر اه

٣

ولما كان مع أبى عبيدة على حصار دمشق كان الاسقف الذى أقام له النزل يوم مروره على دمشق في اثناء ذهابه لمعونة المسلمين في اليرموك ربما وقف على السور فدعي له خالد فاذا أتى سلم عليه وحادثه فقال له ذات يوم يا أبا سليمان ان أمركم مقبل ولى عليك عِدَةٌ فصالحنى عن هذه المدينة فدعا

خالد بدواة وقرطاس فكتب

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق اذا دخلها أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم، ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم الا بخير اذا أعطوا الجزية اهـ

هذا ماروا‌ه البلاذري بشأن هذا الكتاب وهو يؤيد انه كان يومئذ أميراً على جنده وانّ خبر عزله انما أتاهم وهم على دمشق وانما كتمه عنه أبو عبيدة بن الجراح ريثما تم الفتح وقد روي بعض المؤرخين ان أبا عبيدة أجاز كتاب خالد هذا بعد ان فتحت دمشق وأُخبر خالد بالعزل

٤

وكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه الى بني الحارث بن كعب

(بسم الله الرحمن الرحيم) لمحمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الاّ هو (أما بعد) يارسول الله صلى الله عليك فانك بعثتني الى بني الحارث بن كعب وأمرتني اذا أتيتهم الاّ أقاتلهم ثلثة أيام وان أدعوهم الى الاسلام فان اسلموا قبلت منهم وعلّمتهم معالم الاسلام وكتاب الله وسنة نبيه وان لم يسلموا قاتلتهم وانى قدمتُ عليهم فدعوتهم الى الاسلام ثلثة أيام كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثت فيهم ركباناً يابني الحارث أسلموا تسلموا فاسلموا ولم يقاتلوا وانا مقيم بين أظهرهم وآمرهم بما أمرهم الله به وأنهاهم عما نهاهم عنه وأُعلّمهم معالم الاسلام وسنة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يكتب اليّ رسول الله والسلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته

٥

وكتب فى صلح الحيرة كتاباً هذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ماعاهد عليه خالد بن الوليد عديا وعمراً ابني عديّ وعمرو بن عبد المسيح واياس بن قبيصة وحيري بن أ كَّال [1] نقباء أهل الحيرة ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به ، عاهدهم على تسعين ومائة الف درهم كل سنة جزاءً عن أيديهم فى الدنيا رهبانهم وقسيسهم الا من كان منهم على غير ذي يد حبيساً عن الدنيا تاركا لها [2] وعلى المنعة فان لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم وان غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة وكتب فى شهر ربيع الاول من سنة اثنتي عشرة وشهد فلان وفلان

٦

وكتب الى دهاقين السواد كتاباً هذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من خالد بن الوليد لزاذ بن بهيش وصلوبا بن نسطونا ان لكم الذمة وعليكم الجزية وأنتم ضامنون لمن نقبتم عليه من أهل البهقباذ الاسفل والاوسط على الفي الف تقبل فى كل سنة ثم كل ذي يد سوى ماعلى بانقيا وباروسما (وفى رواية بسما) وانكم قد أرضيتموني والمسلمين وإنا قد أرضيناكم واهل البهقباذ الاسفل ومن دخل معكم من أهل البهقباذ الاوسط على اموال ليس فيها ما كان لآل كسرى ومن مال ميلهم شهد فلان وفلان وكتب سنة اثنتي عشرة في صفر اه

---

(١) وفي رواية جبري

(٢) وفي رواية وسائحاً تاركا للدنيا

﴿ (١) كلمة على الذمة أو أصل الامتيازات ﴾

اعلم ان هذه الكتب وكل ما أعطي من الصحابة من كتب العهد لاهل الذمة سواء كانوا فى العراق أو الشام أو غيرها كانت اصولا ثابتة فى معاملة أهل الذمة والعهد من الرعية غير المسلمين وعهوداً مكينة فى جباية الخراج استمر العمل بها مدة الخلفاء من بني أمية وصدراً من خلافة بني العباس حيث صار الناس غير الناس واختلط السكان واتسعت اصول الجباية باتساع العمران في الخلافة العباسية وعلى تلك الكتب بنى الفقهاء كثيراً من القواعد فى معاملة أهل الذمة وعلة ذلك كله الحديث الشريف الذي مر معنا ذكره فى هذا الكتاب وقد جاء فيه (ان المسلمين يسعى بذمتهم ادناهم) بمعنى ان كل ما أعطاه أحدهم من عهد لا سبيل لنقضه بل يؤكده الآخر وهذه قاعدة من أسمى القواعد التى جاء بها الاسلام لحماية الأمم التى تخضع لسيادة المسلمين من أذى أرباب السيطرة ومنعهم من كل من يريدهم بسوء ما داموا فى عهد المسلمين وذمتهم لا يمالئون عليهم عدواً ولا يخونون لهم جواراً ويعطونهم ما فرضوه على انفسهم ورضوا به من الجزية أو أي نوع تراضوا عليه من المال في نظير هذه الحماية وهو تناهٍ فى العدل فى حكم الأمم المغلوبة لم يسمع بمثله فى تاريخ الدول الفاتحة لا فى ذلك الزمن وما قبله ولا الآن بل جرت سنة كثير من الدول الفاتحة وأخصها

---

(١) نريد بهذه الامتيازات مايسمونه امتيازات الكنائس او امتيازات المسيحيين الخاضعين للحكومة الاسلامية (وهي الذمة) لا امتيازات الاجانب فان هذه تسمى (عهداً) واهلها يعبر عنهم بالمعاهدين وهذه ايضاً قد استفحل مع الزمان امرها واستسرى ضررها سيما في المملكة العثمانية التي عاث فيها الاجنبي بتلك الامتيازات وتوسعت الدول المعاهدة بها حتى جعلتها حقاً ثابتاً لها قبل الدول العلية بعد ان كانت منحاً وعهوداً حبية وسيأتى الكلام عليها فى الاجزاء التالية ان شاء الله

الدول المتمدنة الغربية في هذا العصر ان تحكم الأمم المغلوبة لها الخاضعة لسلطانها بغير ما تحكم به في بلادها وابناء جنسها وملتها وتعاملهم معاملة الرفيع للوضيع والغالب القاهر للمغلوب الضعيف لا ان تشترط على نفسها حمايتهم وتكتب لهم العهود والمواثيق

ولقد كان المسلمون يومئذ في إبان عزهم وجدة دولتهم وبسطة جاههم وقوتهم ولم يعملوا بتلك القاعدة لوهن في نفوسهم أو هيبة من عدوهم بل عملا بشرعهم واتباعاً لامر نبيهم ، وأي عصر من عصور الفتح كان أنفذ هيبة وأبسط قوةً وأعظم سلطاناً وأكثر فتحاً من عصر أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ومع هذا فقد كانت كل البلاد التي خضعت لسلطان المسلمين بالرضا والاختيار يومئذ يأخذ أهلها من قواد الجيوش العهود التي تتكفل بحماية نفوسهم وأملاكهم وأعراضهم وحرية دينهم ولا يستطيع أحد من القواد أو العمال ان ينقض عهداً من تلك العهود الا ان خان أصحابه المسلمين

روى البلاذري في تاريخه فتوح البلدان ان عمير بن سعد (الانصاري أحد كبار الفاتحين) قدم على عمر بن الخطاب وقال له ان بيننا وبين الروم مدينة يقال لها عربسوس وان أهلها يخبرون عدونا بعوراتنا ولا يظهرونا على عورات عدونا ولهم علينا عهد، واستشاره في أمرهم فقال عمر فاذا قدمت فخيرهم ان تعطيهم مكان كل شاة شاتين ومكان كل بقرة بقرتين ومكان كل شيء شيئين فاذا رضوا بذلك فاعطهم اياه وأجلهم واخربها فان أبوا فأنبذ اليهم وأجلهم سنة ثم اخربها

فانظر كيف ان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أبى ان ينقض عهد هؤلاء القوم الذي أعطاهم مع انهم نقضوا عهدهم وخانوا دولة المسلمين الحاكمة

عليهم وقد كان في وسع هذا الخليفة العظيم أن يبدد نظامهم ويريهم جزاء عملهم باجلائهم عن بلدهم سواء كان معهم منه عهد أو لم يكن لانهم خانوا المسلمين والخائن لا عهد له ومع هذا فقد أبى عدله ودينه ان يجليهم عن بلدهم الا بعد تعويض ما يفقدونه من المال والمتاع ضعفين

وما زال الخلفاء في كل عصر قائمين بالوفاء بعهود اهل الذمة فيما يتعلق بنوع الجزية ومقدارها كما جاء في كتب العهود التي بأيديهم من الصحابة حتى تغير السكان ودان معظمهم بالاسلام وتنوسيت تلك الكتب وفقدت واما ما يتعلق بحماية اهل الذمة حيث كانوا وحماية اموالهم واملاكهم وحرية معتقدهم فهذه لما كانت لا تفتقر الى المحافظة على امثال تلك الكتب اذ هي قاعدة اساسية فى الاسلام فقد استمر العمل بها الى الآن الا ما كان أيام ملوك الطوائف ربما أصاب أهل الذمة من جورهم ما أصاب أهل الاسلام ولما آلت الدولة الى آل عثمان توسع بعضهم بتلك المنح الاسلامية وأخصهم المرحوم السلطان محمد الفاتح بما أعطاه لبطريرك القسطنطينية من المنح التي تشبه ترتيب حكومة مسيحية داخل الحكومة الاسلامية ولا يحمل ذلك منه على غير التلطف والمجاملة وحسن الصنيع ولكن عمله ذلك كان أشبه بحلقة صارت بعد ذلك سلسلة كثيرة الحلقات اذ جعلت الدول الاوربية من ذلك الحين تستزيد لمسيحى الشرق من أمثال تلك المنح حتى توسع الدول بعدُ باسمها فسموها امتيازات وما زالت تتشعب هذه الامتيازات وتعظم حتى تناولت الذمي والمعاهَد وحتى زال من نفوس الحائزين لها اعتبار كونها منحاً نالوها من دول الاسلام عملا بالشرع الاسلامى لا تمييزاً لاهل الذمة عن المسلمين ولا رهبة من دولة من الدول وكان من ذلك ان وقع الجفاء بين المسلمين وبين

الطوائف المسيحية المحكومة بالدولة العثمانيةوزالت من النفوس الثقة المتبادلة بين الفريقين من قديم الزمان بسبب تحرش الدول الاوربية بالدولة العثمانية بحجة المحافظة على حقوق المسيحيين التي تكفل بالمحافظة عليها الشرع الاسلامي نفسه وجعل لغير المسلم من الحقوق مثل ما للمسلم فما أخلق تلك الدول المتمدنة ان تعطى للمحكومين منها من المسلمين ولو جزأ مما يعطى الاسلام للمحكومين من دوله من المسيحيين ثم تطالب بعد ذلك الدول الاسلامية بحقوق رعاياها المسيحيين وهيهات هيهات ان تغلب الفضيلة على الشهوات و يبلغ العدل عند الدول الاوربية مبلغه في الاسلام

باب
وفاته وولده

اختار خالد بن الوليد بعد ان أتم فتوحه فى العراق والشام ان يسكن الشام فاتخذ مقراً له حمص وفيها توفي سنة احدى وعشرين فى خلافة عمر وقال بعضهم انه توفى فى المدينة وليس يثبت ومدفنه لم يزل معروفا يزار الى الان فى حمص وهو ضمن مسجد واقع خارج السور الى الجهة الشمالية من حمص وقد اتصل به العمران وصار حوله لهذا العهد حيّ يسمى (حي سيدي خالد) كما يسمى المسجد ايضاً مسجد سيدي خالد وقد زرته مرة فوجدت عليه من المهابة والوقار ما يأخذ بمجامع القلوب التي يعرف أصحابها أقدار الرجال ، ويتأثرون بذكرى عصر أولئك الابطال

لما حضرت خالداً الوفاة قال (لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ومافى بدني موضع شبر الا وفيه ضربة أو طعنة وها أنا أموت على فراشي كما يموت

العير فلا نامت أعين الجبناء ، وما من عمل ارجى من لا آله الا الله وأنا مترّس بها)

فلله ما أعظم هذه النفس التي استهانت في سبيل المجد بالحياة حتى ما تطيق الموت على فراش السكون ، وتأنف ان تذوق في غير مواقف الحرب كأس المنون ، ولا جرم ان جسما ليس فيه موضع شبر الاّ وفيه طعنة برمح أو ضربة بسيف لجسم فيه نفس عالية تحار في مرادها الاجسام ، وتمنى لقاء الموت فيحجم عنها في ساحات الصدام ، وهذا هو السر في أن حياة الابطال العظام عزيزة طويلة ، وحياة الاذال الجبناء ذايلة قصيرة .[1]

وأوصى خالد قبل وفاته الى عمر وحبس فرسه وسلاحه في سبيل الله ولما مات اجتمع نساء بني المغيرة يبكين عليه فلما بلغ ذلك عمر قال (ماعليهن ان يبكين أبا سليمان مالم يكن نقع أو لقلقة) وقيل انه لم يبق امرأة من بني المغيرة الاّ جزّت لمتها وحلقت رأسها حزناً على ذلك البطل العظيم الذي يحق ان تبكيه الرجال والنساء ، ويذكره المسلمون بأشرف أعماله صباح مساء .

﴿ ولده ﴾

روي بن قتيبه انه كان لخالد ولد كثير فقتل الطاعون منهم أربعين رجلا فبادوا وقال في أسد الغابة أخرج الثلاثة عن الزبير بن بكار ان ولد خالد بن الوليد انقرضوا فلم يبق منهم أحد وورث أيوب بن سلمة دورهم بالمدينة

ويوجد لهذا العهد قبيلة رحالة في جهات حمص تسمى بني خالد ادعى بعض مشائخها من بضع سنين انها تنتسب الى خالد بن الوليد لاغراض لا محل لذكرها هنا وهي دعوى كاذبة ليس عليها دليل اذ ولد خالد انقرضوا جميعهم في الصدر الاول كما علمت والله أعلم

(١) نريد بهذه الحياة حياة الذكر

انتهى الجزء الاول وفيه سيرة أبى بكر ومن اشتهر فى دولته ويليه الجزء الثاني وفيه سيرة عمر ومن اشتهر فى دولته رضي الله عنهم أجمعين اه

﴿ تنبيه ورجاء ﴾

قد اخترت ان أنشر هـذا التاريخ أجزاء متوالبة لفائدتين (الفـائدة الأولى) سهولة نشر الـكتاب وتعميمه (والفائدة الثانية) اطلاع القراء على الـكتاب جزأ بعد جزء حتى اذا رأى أحد منهم خطأ فى الجزء الواحد ينبهى الى اصلاحه فى الجزء الذى يليه لهذا فانى أرجو ممن يطلع على هذا الجزء من السادة العلماء والـكتاب والادباء ويرى فيه خطأ فى النقل ، أو سهواً عن حقيقة ، أو غموضاً فى قول ، أو ضعفاً في رأي ، أو ما أشبه ذلك من أغلاط قد لايسلم منها كتاب ، ولا يعصم عنها مؤرخ ، أن ينبهني اليه ، ويتفضل علىّ ببيان وجه الخطأ فيه لابادر الى اصلاحه فى الجزء الذي يليه ، اذ العصمة لله وحده والمرء ضعيف بنفسه قويّ بأخيه

﴿ ايضا ﴾

نفدت الطبعة الأولى من هذا الجزء فاعدت طبعه مصححاً على قدر الامكان وكان بودى التبسط فى بعض المباحث واضافة اشياء خطرت لى من سيرة أبي بكر لـكن منعني من ذلك اتصال اعداد صحف هذا الجزء بالاجزاء التي تليه الى تمام المجلد الاول فلو زدت فيه شيئاً لاختل ترتيب الفهرس كما لا يخفى وما اشد هذا التقيد على النفس

فهرست

الجزء الاول من أشهر مشاهير الاسلام

صحيفة

صحيفة